زعماء الموسيقى التركية وقتئذاك يوجهون الموسيقى الشرقية كلها بما كان لهم من انتاج ومقدرة ومهارة . وقد ساعدت الزعامة الاسلامية والسيطرة السياسية على التمكين لهذه الموسيقى فى كل بلاد الشرق . وكانت مصر أقرب الممالك الشرقيـــة استعدادا لقبول ذلك الانتـــاج الفنى . وكانت موهبة « الحمولى » خير مرآة اعدت لقبول جميع الصور الفنية من الموسيقى التركية وغيرها من موسيقات الأقطار العربية الاخرى . ولم تكن عملية هــذه الموهبة تقليــدا ومحاكاة ، بل كان الامر أعظم من ذلك شأنا . فان ما كان لعبده من سمو الذوق وسلامة الفطرة وقوة الابتكار وقدرة الارتجال ، مع حنجرة مواتية وصوت بارع مطاوع ... كل ذلك ساعده على الحفظ ثم الهضم ثم الخلق والابداع

وكما استطاعت « جميلة » فى صدر عهــد بنى أمية ان تحفظ الألحان الفارسية من سائب خاثر ثم تعربها ، وان تضعها أوضاعا عربيــة سليمة تجعلها صاحبــة مدرسة ومذهب جــديد ، فكذلك كان صــنيع « الحمولى » مما استوعبه من الغناء الشرقى عامة والتركى خاصة ، حيث اخذ بعد الحفظ يجدد ويمصر الموسيقى والغناء بما اظهر هذا الفن فى طابع جديد اخرجه من النواح والبكاء والتخاذل والضعف الى القوة والرجولة والطرب المشرق الباسم الذى يخلق جوا من المرح والحبور . وقام بتهذيب الحان التواشيح والقصائد وقدم الحانا هى مزاج من أذواق متقابلة متلاقية دون اخلال بالطابع العربى والذوق المصرى

رسالته الفنية

كانت ثروة النغمات فى مصر محدودة ، وكانت الاصوات تجرى فى مجال ضيق من المقامات لا تتعــداه ، ويبقى سير اللحن على وتيرة واحــدة لوقت طويل فى حال تدعو الى

السآمة والملل . فأخـذ « الحمولى » يسلك فى تلحينه وغنائه سبيل التلوين والتنويع ، وراح يتنقل من مقام الى مقام ومن نغمة الى أخرى فى سير اللحن . فخرج من جمود الترديد والاطالة الى فسحة التجديد والانتقال والتغيير فى توافق وانسجام وبراعة تستأثر بالسمع وتملك على النفس المشاعر وعلى القلوب مواطن الاعجاب

لم يكن الغناء المصرى يصور المعانى أو يقدر الارتباط بين الشعر والموسيقى كما ينبغى ، فقام « الحمولى » بهذه الرسالة ولعب الدور الهام فى ايجاد تفسير وشرح لمعانى الألفاظ بأسلوب أغانيه وحمل النغم مسئولية التعبير والايضاح . وشعر المستمع بأن عليه أن يتابع المعانى فى الأداء الفنى بما لا تستطيع الأداة المجردة اداءه ، بل تجاوز ذلك الى التمثيل فكانت معالمه وملامحه وحركاته تساعد الغناء وتفسر الأداء . وكان ذلك تطلعا الى الموسيقى المسرحية التى كان له الفضل فى توجيه صديقه الشيخ سلامة حجازى اليها

قلما عرف أحد فى تلك الآونة منطقة صوتية رحيبة الجنبات كالتى تمتع بها « الحمولى » بين المغنين . وما أشبه تلاعبه فى حنجرته القادرة بأصابع « بجانينى » فى حركاتها على الكمان تلك الحركات التى أعجزت عصره وجعلته الفرد المثالى بين أنداده . لشدما كان يكافح العازفون على تخت « عبده » فى ملاحقته صعودا وهبوطا ، والسير معه فى تعاريج النغمات والتواء المقامات ، وهو يتسرب من بعضها الى البعض الآخر فى مهارة ودقة وتفوق طالما أعجز الآلات فى منطقتها الصوتية المحدودة عن ملاحقته والتجاوب معه

ان تفرد « عبده » فى مكانته الموسيقية أتاح له فرصة الانتاج المركز المتواصل من ابتكار وتصرف وبديهة حاضرة

لها مقدرة الارتجال والتصرف المفاجىء الذى يفوق الاستعداد والتحضير

ومن طرائف ما يروى فى ارتجاله حادثة اشبه بالقصص الخيالى منها بالوقائع . جهز سرادق فخم لبعض حفلات الزفاف وأعدت لذلك بطاقات الدعوة تحديدا للعدد وتفاديا من الزحام . وكان ثمة حاجب لا يسمح بالدخول لمن لايحمل بطاقة . وحدث ان دخل رجال التخت واستعدوا للحفل ، وحضر « عبده » متأخرا عنهم فطالبه الحاجب ببطاقة الدعوة وهو لايعرفه ونشأ بينهما اخذ ورد أحس به الجمهور ومعهم صاحب العرس . فحملوا الفنان الكبير وأجلسوه مع أصحابه فى صدر السرادق . فما أسرع ما ارتجل « موالا » لمس فيه الموضوع ، واستغل الحادثة فأضفى عليها من براعة فنه ما يجعلها صالحة للغناء ، وخلق منها موضوعا وجدانيا جميلاً جديرا بالتقدير والتحليل ، فقال :

ليه حاجب الظرف يمنعنى وانا مدعى
لرى روض المحاسن من دما دمعى
كم افتكر فى احتجابك واشتكى وانعى
سلمت بالروح ورضيت بالملام والنوح
قول لى بحق المحبة ما سبب منعى

عبده والمظ

ولم يكن احد من المعاصرين يساميه فى المنزلة الفنية سوى الفنانة البارعة « المظ » . كانت تجرى معه فى منهاجه ، وتعزف الصوت على قيثارته ، وان كان لها مدرستها وأسلوبها النسوى فى الغناء ، وقد بدأت المنافسة بينهما ردحا من الزمن قليلا . وسرعان ما هدأت تلك المنافسة لأن باعثها الفن الجميل ، ولا يمكن أن يكون الفن مثار حقد او كراهية ، كما قد يحدث فى بعض الأحيان من صغار النفوس . بل استحالت المنافسة الى تجاوب قلبى

استخدم فيه الغناء على أن يكون مطارحة غرامية أفاد منها الفن والمستمعون اليه . كانت هــذه المطارحات فى ليــالى الأفراح الساهرة التى يلتقيان بها ، وبينهما حجاب مسدول ان منع الرؤيا والمشاهدة فلن يمنع الاستماع الى الأصوات . كان هو يغنى للرجال بينما تختص هى ببنات جنسها . ويتبادلان معا أدوار الغنــاء على التعاقب ، ولــكل منهما « المطيباتى » الخاص به . وكم كانت هذه المنافسة مجال تسابق وارتجــال ، وخلق وابداع ، ثم تشــوق وتعلق . وما أسرع ما أصبح المغنيــان شاعرين مبدعين يناجى كل منهما الآخر فى غنائه بشعر لا يقل فى روعته عما كان يصنعه لهما اسماعيل صبرى والشيخ على الليثى والسيد محمــد الدرويش وغيرهم من أقطاب الشعر

وقد سمعها « عبــده » فى احدى تلك الليالى الساهرة وهى تغنى :

يا سـيدى انا أحبك لله وربنــا عالم شاهد
لاصبر على أحكام الله لما يبان لى معاك شاهد
خبط الهوى ع الباب ، قلت الحليوه أهو جالى
أتارى الهوى كداب يضــحك على القلب الخالى

فما كان منه الا أن غناها ارتجالا الدور الآتى :

روحى وروحك حبــايب من قبــل دى العالم والله
واهـــــل المودة قرايب الخ ... الخ ... الخ ...

وبعــد أن كانت تضمهمــا أفراح المتزوجين ، ضمهما فرحهما وحفل زواجهما . وكانت طليعتــه ليلة فخمــة عظيمة اجتمع لها أقطاب الفن احتفاء بأكبر علمين من أعلام الغناء المصرى يلتقيان فى قران سعيد . واذا قيل « عبده » و « ألمظ » فالنجوم لهما تبع والفن لاسميهما نشيد . فهذا هو أحمد الليثى كبير العازفين بالعود وابراهيم سهلون أمير الكمان ومحمد خطاب شيخ الآلاتية وغيرهم من أساطين الفن

يحتشدون فى ليلة الزفاف . وهذا هو « عبده » نفسه يغنى لنفسه ويطرب المدعوين ويحييهم ويشركهم فى ليلته التى جاد عليه بها الزمن الضنين

الا أن زواجهما هذا كان خسارة على الفن فقد سكنت البلبلة الفريدة واحتجبت بزواجها عن قبول اقامة حفلات العرس . اما هو فقد اصبح تاجرا يبيع الاقمشة الى أجل ويغنى متبرعا بغير اجر . ثم لا تمضى سنتان حتى تذهب تجارته وتفدحه الديون فيعود الى المهنة يسترحمها ويستجدى كفها السمح المعطاء ، فتعوض على ابنها البار كثيرا مما خسر

ولم تشأ الأقدار لتلك السعادة الزوجية أن تدوم فتوفيت سكينة المشهورة بالمظ زوج عبده الحمولى ، قرينته الوفية المضحية . وكانت لوفاتها كما كان لعرسها ضجة أدبية اشتركت فيها الموسيقى والشعر . وبدا لنا ان الزوج كان وفيا وان سعادته بها لم تكن قاصرة على الايام الاولى ، بل كانت عشرة هنيئة قدرها هو وحزن عليها ، فبدأ يغنى بعد وفاتها :

شربت الصبر من بعد التصافى
ومر الحال ماعرفتش أصافى
يغيب النوم وافكارى توافى
عدمت الوصل يا قلبى على

دور

على عينى بعاد الحلو ساعه
ولكن للقضا سمعا وطاعه
لأن الروح فى الدنيا وداعه
عدمت الوصل يا قلبى على

مصائب الفنان

ولم يكن « عبده الحمولى » بمعزل عما أصاب النابغين فى كل عصور التاريخ من نكبات وآلام . ولكى يكون واحدا من هؤلاء الأفذاذ لا محيص له من تجرع الكأس المريرة التى ذاقوا بها الهموم والأكدار . وقد فاز « الحمولى » بنصيب الأسد من ذلك ... طارده أبوه صغيرا ، واستغله المعلم شعبان صبيا ، واحتكره المقدم فتى ، وحاربه زملاؤه بعد ذاك رجلا وفنانا ، ثم قسى عليه القدر فأفقده « المظ » . ثم امعن القدر فى قسوته فسلبه فلذة كبده من زوجة ثالثة وهو فى ملابس العرس وافراح الزفاف . فخلقت تلك الجراح القاتلة من المغنى شاعرا يصور الكارثة افدح تصوير لمأساته فى ولده محمود فيغنى مرتجلا :

ليه يا عين ليه ليه يا عين   يا حليوه يا نور العين
كبدى يا ولدى يا جميل يا جميل
لما رأيت البدن داب منى   ودمع عينى بعد أن نشف منى
كبدى يا ولدى آه يا جميل يا جميل

ومما غناه فى مصابه ايضا :

زاهي جمالك فتنى   لما بدا نور جبينك
ونبل الحاظك تجرح   من سهم قوس حاجبينك
كبدى يا ولدى

احسانه الى الفقراء

وكانت تلك الآلام الفادحة الأستاذ الاول للعصامى الفنان فجعلت منه رجلا تقيا متعبدا يقيم الصلوات لأوقاتها ، فيا لها من موسيقية تذكرنا بما كان فى عهد بنى العباس — حيث العصر الذهبى للغناء العربى — من قيام طائفة من الموسيقيين الممتازين الورعين الأخيار الأبرار . الا أن «عبده» امتاز بغناء ليس فيه حرص « الموصلى » . فقد كان

« الحمولى » ذا كرم وسماحة ومروءة وايثار ، حتى بلغ الحديث عنه ما يشبه النوادر . ولا ريب أنه فى ذلك انبل واشرف من أرباب الثروات الذين ينفقون ما لا يخشون خسارة فيه . اما هو فقد كان ينفق من كسبه اليومى ، ويعطى كل ما فى يده للفقراء ولمن افتقروا بعد غنى . جاد مرة لمدين بخاتم من زمرد فى قيمة ألف جنيه حين لم يجد من المال عنده ما يسد حاجة المدين حين التجأ اليه . كما ترك اقامة حفل لغنى بخيل وذهب فغنى فى فرح رجل فقير قدم له الغناء وانفق تكاليف العرس على حسابه الخاص . ولم تكن هذه وحدها بل لقد أقام عشرات وعشرات من حفلات غنى بها وجمع فيها النقود لأصحابها ، فأغاث فقيرا بائسا ، او أعان صديقا مال به الدهر ، حتى لقد جلس الى جانب بائعة بائسة فى الطريق المؤدى الى شارع شبرا الآن ونادى بسلعتها فى صوته الرخيم حتى امتلأ الطريق بعربات الأعيان وتدفق المال سيلا على البائعة البائسة ، وعادت الى منزلها وهى من اصحاب الثراء

ومن خير ما يؤثر عنه ارتفاعه بنفسه وبالموسيقيين ودابه المتواصل على اعلاء نظرتهم الى فنهم ونظرة الناس الى اشخاصهم . من ذلك أن السراة والأعيان كان من عادتهم ان يقذفوا بالذهب والجواهر فى حفلات الزفاف والأعراس فيسرع الحاضرون الى التقاطها . وهنا تتجلى نزاهة « الحمولى » وعفته وتساميه فيطلب الى رجال تخته وتابعيه الا ينحدروا الى مثل ما يصنعه غيرهم من التقاط شىء مهما غلا ثمنه لأن الفن عنده أغلى من كل شىء

ابداعه

ولقد ابدع « عبده » ثروة فنية من ادوار وموالیا وتواشيح وقصائد اخذت منه وحفظت عنه ، ثم أصبحت بعد ذلك تراثا يخلد اسمه ويعلى ذكراه

ومن أشهر أدواره غير ما قدمناه :

دور مطلعه :

الله يصون دولة حسنك على الدوام من الزوال
ويصون فؤادى من نبلك ماضى الحسام من غير قتال

وآخر مطلعه :

مليك الحسن فى دولة جماله
ملك عقلى وأفكارى وروحى
ومن تيهــه أسر قلبى دلاله
وزاد فى محبته وجدى ونوحى

وآخر مطلعه :

يا منيـــــة الأرواح جــد لى بوصلك يوم
العقـــــل منى راح وهجر عيونى النــوم
والمدامع مطــــــر يا شقيق القمـــــر
والقلب انفطـــــر وازداد عــذولى لوم

وآخر مطلعه :

متع حيــاتك بالأحبــاب أنســــك ظهـــــر
شأن الطرب يشفى الأوصاب للى حضــــــــر
وكيـــد زمانك واتهنـــا وافرح وطيـــــــب
وانفى همـــومك بالأكواب ســــــــعدك أمر

وآخر مطلعه :

شربت الراح فى روض الأنس صافى
على زهر الغصـــون وردى وصافى
وهنـــانى الزمان والوقت صــافى
ســـمح بالوصـــل محبــوبى الى

المطر يبكى لحالى ، والقمر يطلع يكيدنى ، وعذولى ما رثى لى

أما المقامات التى كان يجرى فيها غناؤه لهــذه الأدوار وأمثالها فقد كانت فى الأهم : الحجاز كار والعجم والنهاوند

والراست والبياتى والعراق والسيكاه والعشاق والجهاركاه

ولقد سمعت الآذان المصرية من « عبده » جمال تصفية هذه المقامات وروعة نغماتها ورقة الحانها فى صوت سحرى وألفاظ عربية وروح مصرية واعجاز بلغ به الغناء غايتـه والفن الشرقى منتهى مداه

وسافر « عبـده الحمولى » سنة ١٨٩٦ الى الاستانة عاصمة الشرق يومئذ ، فنالت مصر به سمعة عالية حملت الأوساط المختلفة على الاعتراف لها فى شخص فنانها الكبير بما هى جـديرة به من مكانة . وعاد « الحمولى » مزودا بالهدايا ، وبما فوق الهدايا من تشريف وتقدير

غروب نجمه

اما وقد بلغ هذا النجم نهاية أوجه ، فقد آن له أن يحول رويدا رويدا الى الغروب والاحتجاب ، وهكذا بدأت الأمراض تفعل به فعلها . وداهم مرض السل صدر ذلك العبقرى فنصح له الأطباء بمغادرة القاهرة والاقامة بأعالى الصعيد ، حتى اذا سنحت بوادر الشفاء عاد الى حلوان . وبها كانت نهايته فى فجر اليوم الثانى عشر من شهر مايو سنة ١٩٠١ عن ستين عاما ، مثل فيها دور العصامى المؤمن بشخصيته وفنه ، الباذل من صحته وعبقريته ما يسجل بمداد ذهبى بين ذوى المروءات . ولن تنسى الخدمات الاجتماعيـة فى تاريخها ما تبرع به « الحمولى » من احياء ليال وحفلات لخدمة الهيئات الخيرية

وانتهت حياته بنهاية القرن التاسع عشر ، وتوارى عن الأنظار فى بداية القرن العشرين لتكون تركته مدرسة كان تلاميذه فيها كل من جاء بعده ، وقفى على اثره من امثال محمد السبع واحمد حسنين والشيخ ابو العلا محمد وكثيرين غيرهم ، وسوف تبقى ميراثا للجيل وتراثا للأجيال القادمة

سمعان صيدناوي

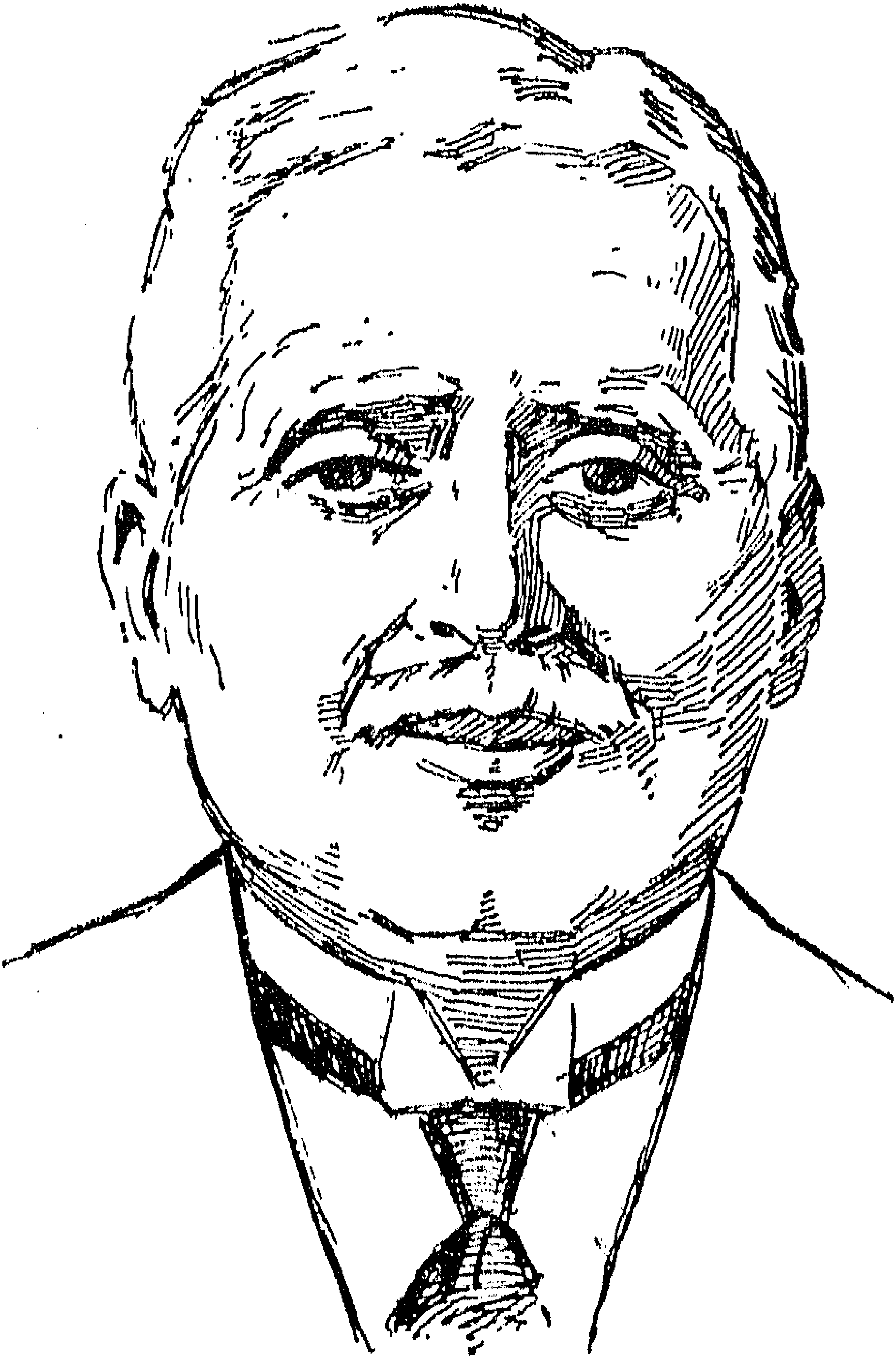

سمعان صيدناوى

« بنى بيديه صرح مجده وغناه لبنة لبنة حتى سمق وعلا وكان من الصروح المردة المنيفة التى يزهو بها الشرق العربى ويباهى »

المغامر الشريف

رجل عصامي من الطراز الاول بنى بيديه صرح مجده وغناه لبنة لبنة حتى سمق وعلا وكان من الصروح المردة المنيفة التى يدل بها الشرق العربى ويزهى ويباهى

لم يكن سمعان صيدناوى فى الرواد الكاشفين الذين يركبون الأخطار ويضربون فى مجاهل الارض مجازفين مغامرين ليعثروا على مناجم الذهب ويعودوا منها ممتلئى الحقائب والوطاب ولا كان من المضاربين فى أسواق المال والاوراق ممن يلتمس الغنى والثراء فى طرفة عين أو بين عشية وضحاها معتمدا على حسن الجد والطالع ليختصر الطريق الى قمم الفوز والنجاح . كذلك لم يكن فى العلماء المخترعين الذين يوفقهم الله الى اختراع نافع تتبناه الصناعة وتجعله فى متناول الناس اجمعين وتدر على صاحبه أخلاف الرزق والثراء العريض . ولا هو عثر على حجر الفلاسفة فتمكن به من تحويل المعادن الى ذهب وهاج

ما كان سمعان صيدناوى واحدا من هؤلاء ولكنه كان جميع هؤلاء فالعمل هو الذى كشف له مناجم الذهب ، فاغترف منها ، والاستقامة هى التى ضارب بها فى أسواق التجارة الشريفة الحرة ، فغمرته بدفعات الكسب الحلال . أما الذكاء فكان وسيلته الي التفنن فى الاختراع والابتكار ففتح له مختلف أبواب الرزق وأما الاحسان فكان حجر الفلاسفة الذى قلب النحاس فى يديه نضارا فكلما أمعن فى

الاحسان زاده الله نعما وحول آماله وامانيه الى حقائق ملموسة تتألق على جنباتها أشعة الظفر والفلاح

نشأته

ولد المترجم له بمدينة دمشق سنة ١٨٥٦ من اسرة طيبة معروفة بحسن السيرة وصفاء السريرة كانت قد نزحت منذ زمن طويل من قرية « صيدنايا » الى العاصمة وتلقى الصبى سمعان العلم فى مدرسة من مدارس دمشق حتى اذا بلغ اشده كان قد ألم بما كان يلم به لداته فى ذلك العهد من أطراف العلوم والآداب واللغات

ها هو ذا فتى فى ريعان الشباب قد تزود للحياة بأفضل زاد العصر مكنه منه ذووه غير وانين عن تضحية فى هذا السبيل ليمدوه اعدادا حسنا للجهاد والكفاح فى الحياة وليكون لهم السند القوى والعماد المرتجى

وتضاربت الآراء فى نوع العمل الذى يزاوله وطال بحث ذويه وتقصيهم وتملكت الفتى حيرة تتملك كل فتى يترك مقاعد الدراسة الى مدرسة الدهر فهو بين نار الحماسة المتقدة فى صدره ونار التلهف الى عمل يضطلع به ويسير فيه الى أبعد الغايات

وتسوق الأقدار الفتى سمعان الى تاجر من تجار العاصمة واسع الرزق والعمل والتجارة فيجعله فى عداد موظفيه ويعهد اليه فى عمل كتابى ينهض به على احسن وجه ثم ينيط به بعد ذلك مختلف الأعباء والاعمال فيتوفر عليها بهمة ونشاط وذكاء وامانة فلا تنقضى سنوات خمس حتى يكون على حداثة سنه مستشار الرجل وامين سره وصاحب المنزلة الأثيرة لديه يعتمد عليه فى شؤون تجارته وضبط اعماله والسهر على مصالحه

وبلغ من اعجاب الرجل بالشاب سمعان ومحبته له وايثاره اياه أن هم بتزويجه من ابنته على اختلافهما فى الدين فخشى أهل الفتى الفتنة ، فأوعزوا الى عم الفتى بالقاهرة أن يدعوه اليه ففعل ولبى سمعان الدعوة وشد رحاله الى القاهرة تحدوه اليها الأمانى الجسام

الهجرة الى مصر

مصر .. ما أعذب هذا الاسم فى أفواه العرب ، وما أجمل الآفاق التى تتطلع اليها النفوس كلما رف على الأسماع ذكر مصر أو جال بالخواطر . مصر هى بلد الآمال والأحلام للعربى الذى ينبو به وطنه فيضرب فى فجاج الارض . كانت مصر فى عهد المترجم له قبلة الأنظار وكعبة الرواد وكانت الهجرة الى مصر قد جد جدها فقصدها رجال القلم هربا من الظلم والاستبداد وسعى اليها المكافحون المجتهدون طلبا للرزق من مناهل نيلها الفياض وكان من الطبيعى أن يدور ذكر مصر على الألسنة فى بلاد الشام بعد اذ استوطنها نفر غير قليل من الشاميين نعموا فيها بالأمن والدعة والحرية ولقوا فيها ميدانا واسع المسالك والشعاب لجدهم ونشاطهم فتواترت على الوطن الاول انباء أبنائه المهاجرين وكلها انباء حلوة طيبة سارة فما عتمت مصر أن أصبحت الجنة التى يحلم بها الشباب فالسعيد منهم من حقق الدهر له حلمه الجميل وساعده على النزول بواديها الأمين الخصيب

بمثل هذه الفرحة الشاملة التى تخف لها أحلام الرجال استقبل الشاب سمعان دعوة عمه فما هى الا أسابيع قليلة حتى كان مشدوها بعظمة مصر وجمال القاهرة ...

نزل سمعان بالقاهرة فى سنة ١٨٧٨ وكان عمه نقولا صيدناوى تاجر أصواف فى حى الحمزاوى فألحقه بالعمل عنده ولم يفكر ولا فكر الفتى فى السعى الى الالتحاق بوظيفة كتابية فى دائرة من دوائر الحكومة او فى شركة من

الشركات الكبرى . ولعل البيئة التجارية التي عاش فيها بدمشق وانتقل اليها فى كنف عمه بالقاهرة قد حصرت تفكيره فى التجارة وضروب اعمالها وما من شك أيضا فى أن التجارة فن من الفنون لا بد له من استعداد خاص وموهبة خاصة والا كان صاحبه كالقابض على الماء فالعمل الذي لا يعدنا الله له ولا يهبنا ملكته ولا نزاوله بحب وشوق وشغف هيهات أن ننجح فيه ولو بذلنا له وافر القوى وأرسيناه على أضخم القواعد والأركان

ولا جدال فى أن سمعان صيدناوى كان الله قد وهبه ملكة التجارة ويسر له العمل والحياة فى بيئة تجارية وحباه نفسا جادة نشيطة مجتهدة تحب العمل الذى وقفت عليه فكأن الله قد منحه بذلك أول مقومات النجاح

مائة جنيه

مكث سمعان يعاون عمه فى عمله مدة ثلاثة أشهر وأظهر من ضروب النشاط والحذق ما حمل عمه على العناية بمستقبله ، فمثل هذه الطاقة من النشاط يجدر بها أن تستغل فى عمل مستقل يستفيد منه الفتى ويشيد به صرح مستقبله فنفح ابن أخيه براس مال صغير أضيف الى المبلغ الضئيل الذى كان سمعان قد ادخره من عمله بدمشق ولعل هذا وذاك لم يبلغا مائة جنيه فكانت هذه المائة من الجنيهات راس مال حانوت صغير فى الحمزاوى لا تزيد مساحته عن مترين فى مترين استقل به سمعان وتعاطى فيه تجارة ما نسميه بمصر ب « الخردوات » وهى مجموعة من السلع الصغيرة كبكر الخيط والمناديل والقمصان الداخلية والأزرار والشرائط والجوارب والأقمشة الرفيعة المخرمة وما لى ذلك

وسار الفتى على بركة الله يدير محله الصغير بنشاط لا يعرف الملل وهمة تفتك بالصعاب ومقدرة فذة راضيا

بالربح القليل مقتصدا فى النفقات حتى بدأت بواكير النجاح تبتسم له ابتسامة الخيط الرفيع من النور قبل انبلاج الفجر
وترامت اخبار سمعان الى أهله بدمشق فقرت أعينهم وحببت الى سليم أخيه الأكبر أن يولى وجهه شطر مصر شطر جنة الله فى أرضه ليجنى منهـا ثمرة كده وفلاحه فها هو ذا شقيقه سمعان لم يحل عليه الحول بمصر حتى استقامت له تجارة ولو صغيرة يكسب منها رزقه فى جو مشبع بالحرية والاستقلال

الأخوان بالحمزاوى

هبط سليم القاهرة فأخذ كما أخذ شقيقه سمعان من قبل بمعالمها العظيمة ومجال العمل الواسع فيها فطاب له أن يزاول بها الصناعة التى كان يزاولها بدمشق وهى خياطة الملابس. فاشترك هو وصديق له يدعى مترى صالحانى وفتحا دكانا لخياطة الملابس فقد كان سليم حاذقا فى هذه الصناعة غير أن القدر بعد أن بسم للشريكين قليلا فجعهما باحتراق الدكان وذهاب ما فيها طعمة للنار . فطيب سمعان خاطر أخيه ونصحه بهجر صناعة الخياطة واقترح عليه مشاركته فى حانوته فرضى بالاقتراح وأضاف الى رأس مال الحانوت ما كان قد ادخره من نقـود وهكذا أسس محـل « سليم وسمعان صيدناوى » فى ذلك الحانوت الصغير بحى الحمزاوى
انقطع الشقيقان الى عملهما لا تأخذهما فيـه ونيـة ولا هوادة وافرغا عليه من نشاطهما وجهدهما ما انتزعا به من يد الدهر قصب السبق والفلاح ، فالعمـل ولا شىء غير العمل هو شغلهما الشاغل وهو الأنس والبهجة والمراح ، فما عرفا طريقا الى مقهى يقطعان فيه الوقت بمدى الكسل والتراخى ، وانما عرفا طريقا واحدة يذرعانها كل يوم بين حانوتهما الصغير وغرفتهما المتواضعة التى يسكنانها فى حى « درب الجنينة » . فكانا اذا أقبل المساء وانقطعت السابلة

سهرا فى دكانهما حتى الساعة العاشرة او الحادية عشرة ليلا يدبران أمورها وينظمان شؤونها ، ويرتبان رفوفها وعلبها ويصفان صررها وبقجها ليستقبلا العملاء فى صباح اليوم التالى على خير وجه من الاستعداد والنظام والترتيب . وكانا اذا اويا الى غرفتهما دارت احاديثهما على البيع والشراء وعلى حركة الأخذ والعطاء يتفننان فى ابتكار الوسائل التى تقودهما فى معارج النجاح

مثابرة وجهاد

ولئن كان الأخ الأكبر لم يعمر طويلا فان سمعان قد عمر حتى بلغ الثمانين فما خبا له نشاط حتى فى شيخوخته فكان يقبل على العمل فى الصباح مع مستخدميه أو قبلهم وينصرف فى المساء بعدهم فرجل هذا شأنه وهذا تقديسه للعمل وانقطاعه اليه ناجح لا محالة فى الحياة فالنجاح طائر يقتنص بشرك العمل ولنا بسيرة سمعان صيدناوى الأسوة الحسنة والمثال الحى

مشى الأخوان بحانوتهما الصغير من نجاح الى نجاح وكافأهما الدهر على همتهما القعساء وجهادهما المتواصل ولكن العمل لم يكن وحده السهم الذى ضربا به كبد الفلاح والنجاح فهناك عامل آخر كان له نصيب كبير فى نجاحهما وهو الاستقامة والصدق فى المعاملة والتزام الكسب الحلال ليس الا ... وفى حياة سمعان صيدناوى الطويلة أمثلة كثيرة للاستقامة التى كانت عاملا من عوامل نجاحه واليك مثلا واحدا منها :

كانت نساء البيوتات فى عهده لا ينزلن الى الأسواق مشتريات . وانما كن ينلن ما يبتغين بوساطة الدلالات وهن نسوة كن يطفن بالدكاكين وينتقين منها الأقمشة والسلع ويعرضنها على ربات البيوت المخدرات فيشترين منهن ما يروق فى اعينهن ويحلو

وفى صباح يوم من الايام بينما كان سمعان فى دكانه الصغير قد استعد لاستقبال العملاء وافته احدى الدلالات واشترت منه عشرين مترا من الشبيك المخرم (الدنتلة) ونقدته الثمن وانصرفت وراجع سمعان مبلغ النقود بعد انصرافها فاذا هو ضعف ما يقتضى ففطن الى أن الدلالة حسبت السعر « بالقرش الصاغ » فى حين طلب هوالسعر «بالقرش التعريفة» (*) فركض خلفها ليفهمها انها غلطت فى الحساب ، وليرد اليها فرق الثمن فأدركها على مسافة بعيدة وصاح فيها وهو يلهث :

ـ حسابك مغلوط يا سيدتى

ـ لا . لا . لا غلط . دفعت الحساب تاما كاملا

وأصمت أذنيها عن سماع أى شرح وتفسير كان وهمت بمتابعة السير الى غايتها فاستوقفها وقال :

ـ دفعت زيادة عن المطلوب . دفعت ضعف الثمن

فأصاخت اليه وعادت معه أدراجها الى دكانه ، وبين لها مصدر الغلط ونقدها الفرق فتهلل وجهها وشكرته على استقامته وامانته واستودعته الله وانصرفت تنقل الخبر الى سيدات « الدائرة » من عميلاتها وتروى لهن امانة « الجدع الشامى الحليوة » وكان سمعان على ما وصفت الدلالة وسامة وقسامة حباه الله جمال الخلق والخلق ، فتطاير الخبر من دائرة الى دائرة ومن بيت الى بيت ، وأصبحت سيدات القصور والبيوتات يوصين الدلالات بابتياع حاجاتهن من دكان الشاب الشامى الوسيم الأمين ...

شهرة ونجاح

اتسعت اعمال الأخوين وكثر عملاؤهما وازدادا همة

---

* من العادات بمصر اطلاق لفظ القرش الصاغ على القرش الواحد الصحيح ولفظ القرش التعريفة على نصف القرش

ونشاطا وتدفق عليهما الرزق واصبح لهما فى المصرف رصيد يعتد به جمعاه بالجد والاجتهاد والمثابرة ففكرا فى الانتقال بتجارتهما الى مكان أوسع فاشتريا فى حى «الموسكى» منزلا قديما هدماه ثم شيداه تشييدا جديدا يفى بالغرض الذى توخياه وافتتحاه فى عام ١٨٩٦ وكان أكبر محل للبيع بالقاهرة فى ذلك العهد ، وهو الذى كان معروفا بمحل « بلاتشى » فى حى « الموسكى » فنظماه صفوفا واجنحة وخصصا كل جناح بضرب من السلع ففتح الله عليهما أبواب الرزق وصارت أمنية كل شار ان يزور اولا محل سمعان ويبتاع منه ما يهوى ويشتهى

وطارت شهرة المحل وأصبح لا يعرف الا بمحل سمعان لأن سمعان كان فيه الركن الركين لا يغيب عنه لحظة واحدة من لحظات النهار ذلك بأن الأخوين كانا قد اقتسما العمل فيما بينهما فاختص سليم وكان اداريا حازما بمهمة الادارة والشراء وتزويد المحل بالسلع اللازمة يسافر من اجلها الى اوربا ويشتريها من مواردها الأصيلة ، واختص سمعان وكان لسنا لبقا ظريفا بمهمة استقبال العملاء والاشراف على صفقات البيع وارضاء كل عميل فلا يخرج من محله الا وهو شاكر راض . فكان من حسن ادارة سليم ان سار محلهما سيرا قويما منظما . وكان من بعد نظره ان وظف الفائض من أموالهما بشراء الأرضين التى يتوسم لها مستقبلا زاهرا ، فاشترى كثيرا من العقار والارض الفضاء فى حى الخازندار وحى ابراهيم باشا وكان من قبل يعرف بحى نوبار باشا ، فارتفعت قيمة الارض والعقار على توالى السنين ، وجنى الأخوان من ذلك الربح الحلال . وكان من اضطلاع سمعان بشؤون البيع والسهر على رضى العملاء ان نمت تجارتهما نموا مطردا ودارت كلمة « سمعان » على كل لسان حتى ان النساء المحصنات ما كن يرضين ببضاعة

تزجيها اليهن الدلالات ان لم تكن ملفوفة بورق يحمل اسم سمعان .

وازداد الاقبال على محل سمعان فأصبحت رقعة المحل على كبرها واتساعها لا تفى بازدياد حركة البيع وازدحام العملاء فاشترى الأخوان محلا حديدا ازاء محلهما الكبير يقع على شارع الخليج المصرى وخصصاه ببيع « المفروشات » فدرت عليهما الاستقامة ودر عليهما العمل الحثيث الجزاء الأوفى يهطل عليهما من شآبيب محلهما الكبير ومحلهما الجديد ومحلهما الصغير الاول فى حى الحمزاوى

وينتقل سليم الأخ الأكبر فجأة الى رحمة الله فى سنة ١٩٠٨ فيجزع عليه سمعان جزعا شديدا ويفقد فيه شقيقا غاليا ونصيرا ومعاونا ويأبى أن يستقل بالعمل وحده من بعده فيشرك معه ورثة أخيه

محلات صيدناوى بالخازندار

وينهض سمعان بالعبء العظيم وتزداد أعمـاله اتساعا ويزداد هو جلدا على الجهاد والكفاح والعمل المتواصل ويرى أن ثقة الناس به تضطره الى التوسع فيقرر توحيد محاله الثلاثة فى محل واحد كبير واسع ولم يجد خيرا من العقار الذى يملـكه فى حى الخازندار وكان مجمـوعة من الدكاكين والمقاهى فبدأ يهدمها فى سنة ١٩١١ ويبنى على انقاضها محله العتيد الكبير حتى فرغ من البناء فى سنة ١٩١٣ واحتفل بافتتاح « محلات سليم وسمعان صيدناوى » فى اليوم الثانى من شهر نوفمبر من عام ١٩١٣

وكان نجلاه يوسف وجورج ونجـل شقيقه الياس قد بلغوا فى ذلك العهد طور الشباب والرجولة فعهد اليهم فى ادارة هذا المحل الكبير وبقى هو حتى آخر لحظة فى حياته يضطلع بالعمـل كأى فرد من الأفراد حتى توفاه الله عن شيخوخة صالحة فى سنة ١٩٣٦ بعد اذ اكتحلت عينه برؤية

حانوته الصغير فى حى الحمزاوى ينمو وينمو وينمو حتى ينقلب الى ذلك البناء الواسع الفخم فى حى الخازندار وحتى يكون له فروع بالاسكندرية والمنصورة وطنطا والفيوم واسيوط وبور سعيد وباريس ومنشستر ، ويضطلع اليوم بادارة هذا العمل الواسع انجاله واحفاده يتزعمهم نجلاه يوسف وجورج ونجل شقيقه الياس ناهجين جميعا نهج الأبوين فى العمل والاستقامة والذكاء والاحسان

عناصر النجاح

يعزى نجاح سمعان صيدناوى الى العمل والاستقامة وهما عنصران رئيسيان من عناصر النجاح ويعزى نجاحه كذلك الى الذكاء الفطرى الذى توجهه الملكة التجارية فالعمل المضنى والاستقامة اذا اجتمع اليهما الذكاء تألف منهما ثالوث كفيل بأن ترسى عليه قواعد النجاح . ولقد كشفنا فى نفس سمعان صيدناوى اقنومين من ذلك الثالوث فلنجتزىء فى الكشف عن الأقنوم الثالث فى نفسه بسرد الواقعتين التاليتين ففيهما الدليل المقنع على الذكاء المنبعث من الملكة التجارية فيه :

كان سمعان ذات صباح واقفا على باب محله فى حى الموسكى يشيع بابتسامته الحلوة وتحيته الرقيقة العملاء الخارجين من محله بعدما ابتاعوا منه حاجاتهم فلمح وراءهم سيدة صفر اليدين قد جمعت ملاءتها وهمت بالخروج فأقبل عليها كعادته يسألها لماذا لم تشتر مطلوبها ، فقالت له ان الأثمان عندكم غالية ، فبكرة الخيط تباع بتسعة مليمات وانتم تبيعونها بعشرة ، فطيب خاطرها وعاد بها الى جناح بكرة الخيط وقال :

— كم بكرة تريدين يا سيدتى ؟

— اربع وعشرون

فأمر البائع بحسبان سعر البكرة الواحدة بتسعة مليمات فافترت اسارير المرأة وعلت وجهها قسمات الرضى. وكانت احدى الدلالات جاءت تبتاع جهاز عروس فابتدأت ببكر الخيط . وكان الجناح الخاص به فى مقدمة المحل ثم ما لبثت أن ابتاعت كل ما تريد فبلغت قائمة الحساب ١٢٠ جنيها ذهبا نقدته اياها راضية مسرورة ، فلولا ذلك المليم الذى نزل عنه لفاته الربح الذى جناه من بيع تلك الصفقة ، ولكنها النظرة السديدة وذكاء المهنة ...

والواقعة الثانية تتلخص فى أن سمعان كان فى سنة ١٩٠٨ يصطاف بلبنان فانتهى اليه أن الشيخ سلامة حجازى قد وفد الى بيروت على رأس جوقه الشهير فخف سمعان هو ونفر من أصدقائه المصريين الى بيروت لسماع الشيخ سلامة ، ولكن الشيخ عز عليه أن لا يزيد عدد النظارة على عدد أصابع اليدين فألغى الحفل وادعى المرض فذهب اليه سمعان وصحابه يعودونه ويستفسرون عن صحته فأخبرهم بخيبة أمله ، وبأنه صحيح معافى ولكن يشق عليه بعد النفقات الطائلة التى تجشمها أن يغنى ويمثل فى حضرة أفراد قلائل لا يملأون مقاعد صف واحد من صفوف القاعة فأخذ رفاق سمعان يواسون الشيخ سلامة ويمنونه بالاقبال فى الليالى المقبلات فيجيب الشيخ على هذه الأمانى ببسمة صفراء تشتمل كل معانى اليأس والقنوط . وعلى حين فجأة ينتفض سمعان ويقترب من الشيخ وهو يقول :

ــ يا عزيزى الشيخ

ــ لبيك يا أخى سمعان

ــ ان الشعب اللبنانى مرح طروب يقدر الغناء ويعشق الصوت الجميل ولكنه لا يتحرك الا عن ثقة واقتناع وهذه هى المرة الاولى التى تزور فيها بيروت فاعذره اذا هو لم يعرف من هو الشيخ سلامة حجازى

فلم يخرج الشيخ عن بسمته الصفراء فاستأنف سمعان حديثه وقال :

ــ ألم تكن يا عزيزى الشيخ ترتل القرآن وتعلو المآذن قبل أن تعلو المسارح

ــ بلى ...

ــ اذن تذهب غدا وهو يوم جمعة الى مسجد بيروت وتؤذن الظهر بصوتك الرخيم فيتساءل عنك الناس حتى يعرفوك ولسوف يقبلون على مسرحك فى المساء وانا كفيل بأنه لن يكون فيه موضع لقدم

وكان ما قدره سمعان ..

ليس الذكاء علما بالغيب وانما هو تقدير صحيح للأمور ونتائجها فمن وهب ملكة من الملكات ساعده الذكاء المنبثق منها على جلاء الغوامض وتدارك العواقب . فالملكة التجارية هى التى أوحت الى سمعان بذلك الاقتراح فنعم الشيخ سلامة بنتيجته الحسنة . ونحن ان عرفنا عن سمعان صيدناوى هاتين الحادثتين وحكمنا له استنادا اليهما بالذكاء فما من شك أن هناك كثيرا من مثيلاتهما عرضت له فى الحياة ووجهه فيها الذكاء وبقيت سرا مكتوما توشح بها سر النجاح

الجـــزء الثانى

عصاميون من الغرب

توماس اديسون

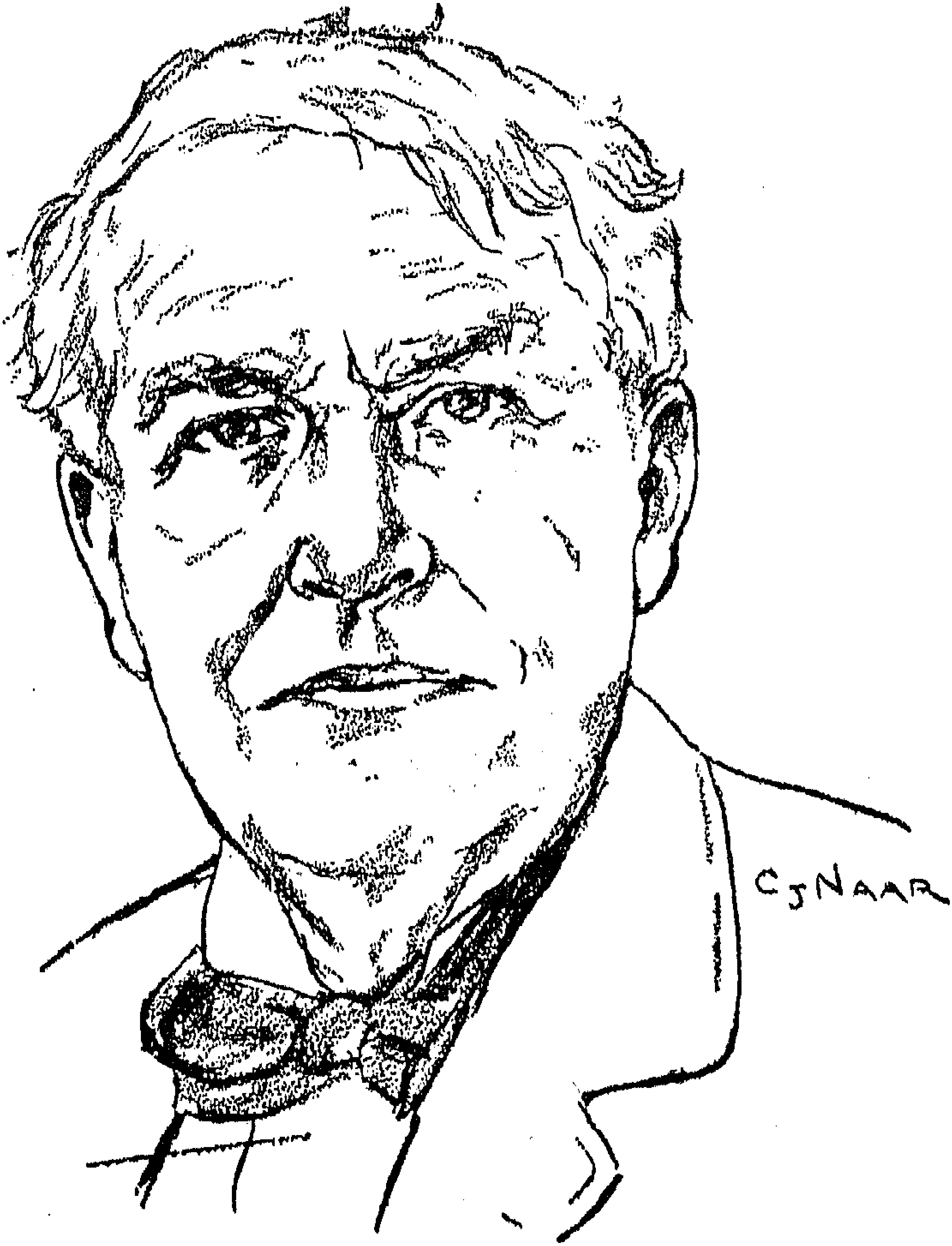

توماس اديسون

العصامي الذى يسر سبل الحياة ووهب للناس من آيات العلم ومنتجات
آثاره ما رفه عنهم وغمرهم بالخيرات والبركات

العالم العصامى

كان فى السابعة من عمره حين دخل المدرسة لأول مرة ، فى بلدة « بورت هورون » بولاية « متشيجان » الامريكية ، بعـد أن انتقل اليهـا مع والديه : « صمويل اديسون » و « نانسي اليوت » من قرية « ميلان » الصـغيرة بولاية « أوهيو » حيث رزقا به فى ١١ من فبراير سنة ١٨٤٧ .

ولم تزد فترة التحاقه بهذه المدرسة على ثلاثة أشهر، ثم لم يدخل بعدها أية مدرسة ، فقد صرح معلموه فيها بأنه من الغباء والبلادة بحيث لا يصلح للتعليم ، ولم يكن راى والده فيه خيرا من رأى معلميه !

على أن والدته وكانت مدرسة سابقة ، عز عليهـا أن يخيب أملها فى وحيدها العزيز « توماس » فأخذت على عاتقها مهمة تعليمه فى المنزل ، وواصلت القيام بهذه المهمة زهاء ثلاث سنوات ، أتقن الصبى خلالها القراءة والكتابة ، وألم بمبادىء بعض من العلوم والفنون . وقرا باشرافهـا طائفة من الكتب المفيدة اهمها : « دائرة المعارف الصغرى » و « قاموس العلوم » للاستاذ « بور » و « تاريخ انجلترا » للاستاذ « هيوم » وكتـاب « اضمحلال الدولة الرومانيـة وزوالهـا » للمؤرخ « جيبون » . وحاول قراءة كتـاب « نيوتن » لكنه لم يطق المضى فيه ، وكره الرياضيات كلها من ذلك الحين !

وكان هذا نجاحا عظيما لتوماس الصغير ووالدته ، غير أن ظروف الأسرة المعيشية ، قضت بأن يقف الصبى عند

هذا الحد من الدراسة المنزلية ، وبأن يعمل بائعا للصحف ، سعيا وراء القوت !

وبعد قليل ، انتقل الصبى من بيع الصحف فى الشوارع ، الى بيعهـا فى قطـارات السكة الحديدية فيما بين « بورت هورن » ومدينة « دترويت ». واتسع نطاق تجارته فصار يبيع للمسافرين ـ علاوة على الصحف ـ بعض الكتب ، واكياس الحلوى والفول السودانى وما اليها !

ورغم قلق والدته الدائم وخشيتها على حياته من اخطار الحوادث فى عمله اليـومى الشاق ، كانت حريصـة على تشجيعه ، وتقوية روحه المعنوية ، مع العناية بنظافتـه ونظافة ملابسه . ولكنه لم يكن يعبأ كثيرا بمظهره ، فيكتفى فى اكثر الاحيان بنظافة وجهه ويديه واقمصته ، اما بذلته فلم يكن يبدلها الا حينما تبلى ، واما حذاؤه فلم يكن لتنظيفه يعنيه فى قليل ولا كثير

يصدر مجلة

مضى توماس اديسون فى عمله المضنى المتواصل ، راضيا به ، باذلا من النشـاط ما لا يطيقه الا اولو العزم من الشباب الأقوياء ، مع انه لم يكن قد جاوز الثالثة عشرة من عمره !. . وما كاد يمضى فيه سنتين حتى تاقت نفسـه الطموح الى المزيد من النجاح ، وهداه ذكاؤه الى اصدار مجلة صغيرة سماها « ويكلى هيرالد » طولها شبران ، وعرضها شبر ونصـف شبر ، وثمن النسخـة منها سـتة مليمـات ، واشتراكهـا الشهرى ستة عشر مليمـا . فاشترى لذلك بعض الحروف القـديمة من مطبعـة « ديترويت الحرة » . كمـا اشترى آلة طبـاعة صـغيرة كانت تسـتعمل لطبع الحسابات فى احد الفنـادق ، ثم اخـذ يحرر المجلة ويجمع حروفها ويطبعها ويوزعها فى القطار . وظهر العدد الاول منها فى ٣ من فبراير سنة ١٨٦٢ وسرعان ما اجتـذبت

اخبارها الطريفة اعجاب المسافرين ، فبلغ ما كان يوزعه من كل عدد منها ۲۰۰ نسخة ، ولم تتم المجلة سنتها الاولى حتى جاوز عدد المشتركين فيها خمسمائة . وبذلك تضاعف ايراد الصبى المجد المبتكر ، اذ بلغ ربحه من مجلته وحدها ٤٥ دولارا فى الشهر ، وكان بارا بوالديه فخصص هذا الربح كله لمساعدتهما !

لم يكن الكلل أو الملل يعرف سبيله الى نفس الصبى توماس ، وقد شجعه نجاح مجلتـه على مضاعفـة جهوده الشاقة لبلوغ غايات أبعد ، فأنشأ بجانب مطبعته فى القطار معملا صغيرا جمع فيـه بعض آلات التلغراف والأسلاك المختلفة وزجاجات بها بعض المواد الكيمياوية ، واخذ يمضى اوقات فراغه من العمـل فى اجراء التجارب لاختراع آلة تلغرافية من نوع جديد

على أن الحظ بدأ يقلب للصبى المجتهد ظهرالمجن ، فحدث يوما وهو منهمك فى تجاربه أن اشتد اهتزاز القطار اثنـاء اجتيازه طريقا وعرا ، فانقلبت زجاجة الفوسفور وانسكب ما فيها على ارض العربة فاشتعلت النار فيها . ومع انه سارع الى اطفاء الحريق ونجح فى ذلك بعد جهد جهيد ، لم يسع سائق القطار فى شدة غضبه وحنقه الا أن ينزل به أشد العقاب ، فقذف به وبمطبعته وكل أدواته وأمتعتـه من القطار فى أول محطة وقف بها بعد اطفاء الحريق . ولم يكفه ذلك فاهوى بيده الغليظـة على وجهه بضربة قوية أليمة ، بقى الصبى يعانى آثارها طيلة عمره ، اذ أدت الى فقـد اذنه اليسرى قوة السـمع ، وذهبت كل محاولاته لعلاجها مع الريح !

مصاعب وعقبات

ولم يفت ذلك الحادث فى عضد الصبى فاستأنف اصدار مجلته وتجاربه الكيميائية فى غرفة خصصها له والداه بأعلى

المنزل . واستطاع ان يحافظ على ما بلغته المجلة من رواج كما وصل فى تجاربه التلغرافية الى ما يبشر بالنجاح ، فمد بين غرفتـــه وبين مساكن بعض زملائه من صبية المدينــة أسلاكا كالتى تســتعمل فى المواقد ، مستعينـــا على ذلك بالأشجـــار القائمة فى الطـــريق ، واستعمل أعنـــاق بعض الزجاجات لتقوم مقام الآلات العازلة . ولكنه قبل ان يتم ذلك المشروع فوجىء بحادث لم يكن فى الحسبان ، اذ اتفق أن نفرت بقرة لأحد الجيران ذات ليلة ، فحطمت احـــدى الشجرات التى ربط بها أسلاكه ، ثم اخذت تحاول التخلص من الأسلاك التى التفت حولها ، وتطلق فى خلال ذلك خوارا عاليا أزعج الجيران جميعا ، فهبوا من مراقدهم ساخطين ، وكانت النتيجة أن أتلفوا كل تلك الأسلاك والادوات التى أعدها لمشروعه الخطير !

وابى سوء الحظ الا أن يمتد الى العمـــل الصحفى الذى نجح فيه توماس . فقد أشار عليه صديق له أن يصدر صحيفة جديدة باسم « بول براى » بدلا من مجلته الاولى ، ولم تض على ذلك أســـابيع حتى نشر خبرا خاصـــا فى صحيفته الجديدة أسخط عليه احد رجال المدينة ، وما كاد يلقاه بعد ذلك حتى انتقم منه شر انتقام اذ قذف به فى نهر « سان كلير » . ولم ينج الصـــحفى الصبى من الغرق الا بأعجوبة . وكان هذا الحادث بداية النهاية لذلك المشروع الصحفى ، فاحتجبت « بول براى » فجاة بعد قليـــل ، وعاد توماس يبحث لنفسه عن عمل جديد

عامل تلغراف

وفق توماس بعـــد أشهر الى الالتحاق بوظيفة عامل تلغراف ليـــلى فى محطـــة « بورت هورون » بمرتب قدره خمسة وعشرون دولارا فى الشهر . وكان الفضل فى التحاقه بهذه الوظيفة للمستر ماكنزى ناظر محطة « مونت كليمان »

وهى المحطة التى قذف اليها سائق القطار بصاحبنا توماس وأدوات معمله منذ أربع سنوات . فقد تطوع ذلك الناظر لتدريب الصبى على استعمال آلة التلغراف حتى حذقه ، ثم ساعده فى الحصول على تلك الوظيفة . وكان فى عطفه عليه واعجابه بجده وطموحه يرد له جميلا صنعه معه ، اذ خاطر بحياته يوما لينقذ طفله الحبيب من موت محقق تحت عجلات القطار !

وما كاد توماس يطمئن فى وظيفته حتى عاوده حنينه الى تجاربه العلمية ، فأعاد انشاء معمله فى مسكنه ، وأخذ يمضى أكثر أوقاته عاكفا على تلك التجارب . وكانت نتيجة هذا الجد انه فقد عمله الليلى فى المحطة ، لأن النوم كان يغلبه وهو يؤديه !

والتحق بعد ذلك بوظيفة مماثلة فى مدينة « سارينا » . لكنه فقدها أيضا بسبب انشغاله بتجاربه ، فضلا عن أن ذلك كاد يؤدى الى كارثة اصطدام قطارين !

وفى سنة ١٨٦٤ ، عين توماس اديسون عاملا للتلغراف بمدينة « انديانا بوليس » وبلغ مرتبه خمسة وسبعين دولارا فى الشهر ، فكان يبعث الى أسرته بأكثر مرتبه ، ويخصص الجانب الأكبر من بقيته لشراء الكتب العلمية والأدوات التى يستعملها فى اجراء تجاربه

عنايته بالتجارب العلمية

وتنقل فى وظيفته هذه بين مدن أخرى أهمها سنسناتى ، وممفيس ، ولويستيل . وعرف فى هذه المدن كلها بأنه أسرع عامل فى ارسال البرقيات . ولكن رؤساءه كانوا يضيقون بانكبابه على المطالعة والتجارب العلمية التى يعدونها عبثا لا فائدة فيه .. وهكذا كان لا يكاد يستقر فى عمل حتى يضطر الى تركه والبحث عن عمل آخر فى مدينة أخرى . وكثيرا ما اضطر الى السفر ماشيا وهو يحمل كتبه

وأدواته وآثار الفاقة ظاهرة فى بذلته وحذائه الباليين . ثم لا يكاد يستريح من عناء رحلته الشاقة ويجد العمل المناسب لكفاءته حتى يعود سيرته الاولى !

وحدث يوما وهو فى « سنسناتى » أن كاد يقتله احد رجال البوليس ، اذ ارتاب فى أمره وحسبه لصا ، نظرا الى هيئته الرثة ولسيره فى ساعة مبكرة حاملا رزمة ثقيلة من أعداد مجلة قديمة كان قد اشتراها فى مزاد عام . ولما صاح به آمرا اياه بالوقوف ، لم يسمع توماس صيحته بسبب أذنه الصماء وواصل سيره . فأطلق الجندى عليه رصاصة من بندقيته كادت تطيح بأذنه الاخرى وبحياته كلها !

وأخيرا انتهى به المطاف الى أن اضطر الى العودة لمدينة بورت هورون ، حيث لازم فراش المرض بمنزل والديه ، وبقى ثمانية عشر شهرا يعانى ضعف صحته بجانب آلامه النفسية بسبب فصله من عمله برغم تفوقه فيه ، وامتناع مكاتب التلغراف عن استخدامه ، لا لذنب غير اشتهاره بحب المطالعة واجراء التجارب الكيميائية أملا فى الوصول الى اختراع جديد مفيد !

ما كاد توماس اديسون يسترد صحته ، حتى اعتزم السفر الى « بوسطن » لاستكمال أبحاثه الجديدة فى الكهرباء هناك . وقد منحته شركة السكة الحديدية « جراند ترنك » تذكرة سفر مجانية ، مكافأة له على اقتراح قدمه لها أمكنها بتنفيذه استخدام سلك مائى واحد لاحداث دورتين كهربائيتين فعاد ذلك عليها بربح كبير نتيجة لقلة التكاليف !

اول اختراع له

ووجد عملا ليليا فى مكتب تلغراف لشركة « وسترن يونيون » . وقسم أوقات فراغه بين مطالعة المؤلفات عن

الكهرباء وبين اجراء تجاربه فيها بالمعمل الصغير الذى انشأه فى مسكنه . وكان زملاؤه مع اعترافهم ببراعتــه فى عمله لا يكتمون سخريتهم منه لقلة عنايته بمظهره ، ولأن اشتغاله بتلك التجارب والمطالعات كان فى رايهم جهدا ضائعا لا خير فيه !.. لكنهم لم يجدوا بدا من العدول عن هذا الرأى حين علموا بتسجيله أول اختراع كبير له فى سنة ١٨٦٩ ، وهو يومئذ فى الثانية والعشرين من عمره ، وكان ذلك الاختراع آلة كهربائية لتسجيل أصوات الناخبين !

على أن هذا الاختراع لم يفده شيئا ، اذ رفضت الهيئة التشريعية فى الولاية استخدامه

وحــدث فى ذلك الحين أن دعى الى القـاء محاضرة عن التلغراف باحدى المدارس ، وشغلته تجاربه عن تذكر موعد المحاضرة ، الى أن نبهه اليه صديقه «ادامز» فى آخر لحظة ، واصطحبه الى المدرسة وهو ما زال يرتدى ثوب المعمل ، وشـــدما كان حرجه حين فوجىء بأن اكثر من فى قاعة المحاضرات من السيدات والآنسات المتأنقات ، لا من الطلبة كما توقع هو وصديقه !

ولم يطق البقاء طويلا بعد ذلك فى بوسطن ، ولاسيما أن ديونه أخذت تزداد حتى بلغت نحو ثلاثمائة دولار ، فترك عمله فيها ، وسافر الى نيويورك حيث أمضى ثلاثة أسابيع متعطلا لا يكاد يجد القوت الضرورى لبقائه على قيد الحياة !

وفى ذات صباح ، توجه الى مكتب المالى المعروف مستر « لو » صـــاحب شركة « ريبورتنج » للذهب ، ليطلب عملا يعيش منه ، واتفق ان اغمى فى المـكتب على الموظف المختص بكتابة اسـعار الأسهم ، وأدى ذلك الى تعطــل الاعمــال فى نحو ستمائة بيت من بيوت الاوراق الماليــة المتعاملة مع المكتب . فانتهز توماس اديسون هذه الفرصة ،

وقدم لصاحب الشركة اقتراحا عمليا لتلافى مثل ذلك التعطيل فى المستقبل ، فأعجب هذا باقتراحه ، وعينه مديرا لادارة المكتب بمرتب شهرى قدره ثلاثمائة دولار !

٤٠ الف دولار

اتصل اديسون بعد قليل بالجنرال مارشال مدير شركة « جولد ستوك تلغراف » واخترع للشركة آلات مختلفة لكتابة اسعار الأسهم وغيرها ، وقد وصف هو فيما بعد ما شعر به حين عرض عليه ٤٠ الف دولار ثمنا لأحد اختراعاته ، فقال : « لم اصدق سمعى أول الأمر ، فلما تحققت ذلك كدت اقع مغشيا على من شدة المفاجأة ! »

وما كاد هذا المبلغ يصل الى يده حتى انشأ به مصنعا لنفسه فى « نيو آرك » بمدينة « نيوجرسى » . استخدم فيه نحو ثلاثمائة عامل . ثم توالت مخترعاته التلغرافية ، وفى مقدمتها : آلة مزدوجة ترسل بواسطتها على سلك واحد فى وقت واحد ، رسالتان الى جهتين مختلفتين . وآلة رباعية ترسل بها فى وقت واحد أربع رسائل كل اثنتين منها الى جهة ، وقد اشترتهما منه شركة « وسترن يونيون » بثلاثين الف دولار ، انفقها كلها فى سبيل اختراع آلة سداسية ، اشترتها منه الشركة نفسها ، فوفرت باستعمالها ملايين الدولارات

وفى سنة ١٨٧٣ تزوج توماس اديسون من احدى العاملات فى مصنعه ، فأنجبت له ابنته مارى استل ، وولديه توماس الفا ، ووليام لسلى . وبرغم حبه لزوجته واولاده كان يبذل الجانب الأكبر من وقته وجهده وماله فى سبيل تجاربه العلمية ، واعلن انه بسبيل اختراع آلة تلغرافية تعمل بنفسها ، فكان ذلك مدعاة لتهكم الصحف عليه والسخرية منه ، على انه لم يعبأ بشىء من ذلك ، ومضى فى سبيله حتى حقق تلك المعجزة الكبرى !

ثم اخترع آلة تسجل مائتى كلمة فى الدقيقة وترسلها على سلك واحد طوله ٢٥٠ ميلا ، وأدخل على هـذه الآلة تحسينات عدة فصارت تسجل فى الدقيقة الواحدة ٣٢٠٠ كلمة !

وفى سبيل تحقيق هذه المعجزة ، اضطر العالم المخترع الشاب الى قراءة أكداس من كتب الكيمياء ، جلبها من لندن وباريس ونيويورك ، وبقى ستة أسابيع لا يغادر معمله ليل نهار أجرى خلالها اكثر من الفى تجربة ، وملأ مجلدا ضخما بملخصات الكتب التى قراها ، وكان يأكل أثناء قراءته ، وينام على الكرسى الذى يجلس عليه !

اختراع المصباح الكهربائى والفونغراف والسينما

وفى سنة ١٨٧٨ عكف أديسون على اختراع مصباح كهربائى صغير الحجم محتمل الضوء يمكن استخدامه بدلا من مصابيح الغاز ، وقضى فى تجاربه المتواصلة ثلاثة عشر شهرا ، انفق فى خلالها ما يزيد على مائة ألف ريال ، ولكن جهوده كللت بالنجاح فسجل اختراعه الذلك المصباح فى يناير سنة ١٨٨٠ ، وأشرف على انشاء مصنع فى « منلوبارك » لصناعة الزجاجات المفرغة من الهواء ، ثم توفر على انشاء محطة لتوليد الكهرباء فى نيويورك لمن يريد استعمال ذلك المصباح !

وقبل ذلك بسنتين سجل اديسون اختراعه آلة لتسجيل الصوت « الفونغراف » ، وكانت آلة « الكينمتوسكوب » التى اخترعها بعدئذ تمهيدا لطريق اختراع السينما !. ثم اخترع آلة للسينما الناطقة لم يقدر لها الرواج لكثرة تكاليفها . كما أخرج عشرات من المخترعات من بينها : « التاسيمتر لقياس حرارة النجوم ، و « الميجافون » لحمل الصوت مسافات شاسعة ، و « الايروفون » لتكبير الصوت الى مائتى ضعف ، و « الميميوجراف » لطبع المذكرات وما اليها ، وآلة مغناطيسية لتحليل المعادن . كما سجل عشرين

ابتكاراً لتحسين البطارية المشحونة بالكهرباء ، فمهد السبيل الى ابتكار العربات التى تسير الآن بالكهرباء فوق الارض وتحتها !

زواج اديسون

وفى ذلك العام نفسه تزوج من الآنسة « مينا ميلر » وهى ابنة أحد ارباب الصناعة ، ثم اشترى ضيعة على مقربة من معمله ، مساحتها ثلاثة عشر فدانا من حدائق وبساتين ، وفيها بيت أنيق مبنى بالآجر والخشب . وهنـاك ولد له أبناؤه الثلاثة «مدلين» و «شارلز» و « تيودور » وتوافدت عليه الهدايا فى بيته الجديد تبعث اليه من أطراف الارض ؛ فتماثيل من الرخام المجزع أهداها اليه قيصر روسيا ، وأوانى يابانية ثمينة أهدتها اليه جمعية المهندسين باليابان ، ومحبرة عجيبة أهدتها اليه مصانع كروب الالمانية فى صورة مدافع وقنابل مصفرة . وكان من بين هذه الهدايا وسام « البرنس البرت » الذهبى قدمته اليه جمعيـة الفنون فى لندن عام ١٨٩٢ ، كما أهدت اليه فرنسا الطبقات الثلاث من أوسمة « اللجيون دونور » . وبعثت اليه جمعية التصوير الشمسى بفرنسا وسامها البرونزى ، كما بعثت اليه ايطاليا وسام « التاج الايطالى » . هذا الى أوسمة شتى جاءت اليه من المعاهد الامريكية فى بوسطن ونيويورك ومن المعارض التى أقيمت فى استراليا والنمسا وانجلترا وفرنسا وامريكا

وفاة اديسون

وتوالت السنوات على اديسون وفترت عنه قوة الشباب ، وبلغ من حياته ما لم يبلغه غيره من مخترعات ثم انطفأت الشعلة آخر الأمر وخمد نشاطه الدائب فى يوم وفاته فى الثامن عشر من اكتوبر سنة ١٩٣١ ، وكان قد بلغ الرابعة والثمانين من العمر

شارل دیکنز

تشارلز ديكنز

عجزت اسرته عن الحاقه بالمدرسة ، فبقى حتى التاسعة من عمره لايعرف القراءة والكتابة ، ومع ذلك فانه لم يكد يبلغ الرابعة والعشرين حتى كان الناشرون يتسابقون الى التعاقد معه لامدادهم بالقصص

عبقرى صنعه الفقر

فى كوخ بسيط متواضع بقرية « بورتسى » فى ضواحى ميناء « بورتسماوث » الانجليزى ، ولد تشارلز جون هسنام ديكنز » فى ٧ فبراير سنة ١٨١٢ . وما أتم العام الاول من عمره حتى نقل أبوه الكاتب فى البحرية الى لندن ، فاقام بها وأسرته أشهرا معدودات ، ثم نقل مرة أخرى الى ميناء « تشاتم » . وهناك فى كوخ بسيط متواضع أيضا استقرت الاسرة المؤلفة من الزوجين وولديهما،وكان تشارلز أصغرهما ثم أخذ عدد أفراد الاسرة فى التكاثر ، بينما بقى دخلها الضئيل على ما كان عليه ، فأخذت حالتها تبعا لذلك تنتقل من سيىء الى أسوأ ، ولا سيما أن عميدها كان بفطرته مسرفا يميل الى التأنق والحياة المرحة اللاهية ، كما أن ربة الاسرة كانت ساذجة لا تحسن التدبير !

دراسته وشقاء اسرته

وبقى تشارلز حتى بلغ التاسعة من عمره لا يعرف القراءة والكتابة ، اذ عجزت أسرته عن ادخاله المدرسة . على أن والده كان يختصه بكثير من رعايته وعنايته ، ويصطحبه فى رحلاته القصيرة الريفية حيث يزوده بطرائف المعلومات والمشاهدات ، ويروى له الكثير من القصص والحكايات المسلية ، كما يقوم أمامه أحيانا بتمثيل الأدوار الهزلية التى برع فى أدائها . . ثم أتيح للصبى أن يبدأ دراسته فى مكتب أولى يشرف عليه الأب جيلز قسيس طائفة المعمدين بالقرية، فمكث فى هذا المكتب نحو سنتين تعلم فيهما القراءة والكتابة،

وامتلأ خياله بعشرات من الصور الرائعة عن الشخصيات التى قرأ عنها فى مجموعة الكتب والصحف القديمة التى كانت مكدسة فى غرفة على سطح ذلك المكتب

ثم انتقل الصبى مع أسرته الى لندن للمرة الثانية ، اذ نزح اليها عميدها بعد أن اثقلته الديون ، راجيا أن يجد فيهـا مخرجا من الضائقة التى استحكمت حلقاتها ، لضآلة مرتبه وكثرة اولاده !

على أن الشقاء الذى لقيته الاسرة فى لنـدن كان أشـد واقسي ، فقد حول عميدها مرتبه الى دائنيه ، وحاولت ربة الاسرة ايجاد حل لازمتها الطاحنة ، فانتقلت بها الى مسكن جديد اعتزمت ان تجعل منه مدرسة للفتيات ، وارسلت ابنها تشارلز الى المنازل القريبة ليوزع الاعلانات التى ضمنتها برامج الدراسة ، ولكن الفشل الذريع كان نصيب كل هذه المحـاولات ، وسرعان ما تبخرت آمال الزوجين ، فأوقع الدائنون الحجز على أثاث مسكن الاسرة ، وسيق عميدها الى سجن « المارشالسى » المخصص للمدينين المماطلين .
وانتهى الأمر بتشارلز المسكين الى ان اضطر وهو فى الحادية عشرة من عمره الى ان يخلد الى اليأس من استطاعته مواصلة الدراسة ، وأن يتناسى آماله التى طالما راودت خيـاله وفى مقدمتها ان يصبح مالكا لقصر « تل كاد » التاريخى الفخم ، الذى كان يسترعى انتباهه ويثير خواطره واحلامه كلما مر عليه فى جولاته الريفية مع ابيه بالقرب من قرية تشاتم !..
وهكذا وجد الصبى نفسه فى هذه السن الغضة ، يرزح تحت اعباء ثقيلة من الأعمال المنزلية المختلفة ، ومن التردد الى السوق ، ورعاية الصغار من اخوته واخواته ، ومحاسبة الدائنين ، وزيارة ابيه فى السجن من حين الى حين !

عمله فى مصنع

وقدر للصبي البائس أن يجد عملا اكثر استقرارا واعظم

اجرا ، وان لم يكن فيه ما يتفق وأحلامه وامانيه فى مواصلة التعليم . وكان عمله الجديد هذا فى مصنع متواضع مظلم لانتاج نوع من الدهان الاسود ، كان يملكه قريب لوالدته . فصار يمضى اكثر ساعات النهار فى تعبئة ذلك الدهان فى الزجاجات المعدة لذلك ، ثم يضع كلا منها فى ورق خاص يلفه حولها باحكام ، بعد أن يلصق بها بطاقة باسم المصنع وعنوانه ونوع الدهان . وقد استطاع تشارلز أن يحذق عمله ويتقنه ، برغم انه يختلف عن ميوله كل الاختلاف ، وبرغم شعوره بالمرارة فضلا عن التعب لاضطراره الى ترك الدراسة واحتراف عمل يدوى حقير ، يزامله فيه رفاق غلاظ القلوب والطباع ، لاحظ لهم من المعرفة او حسن الذوق ، وفيهم مع ذلك من يتناول ضعف اجره الذى لم يكن يزيد على ستة شلنات فى الاسبوع !

ولم تستطع السيدة ديكنز أن تصمد طويلا للقيام وحدها بحمل أعباء الإسرة المدينة البائسة ، وكان مصرحا لأهل المدينين المسجونين أن يعيشوا معهم فى السجن على أن يدفعوا أجر سكنهم فيه ، فانتقلت الى هناك بأولادها جميعا — ما عدا تشارلز — اذ اتخذ لنفسه مسكنا خاصا بالقرب من المصنع الذى يعمل فيه ، مكتفيا بتمضية يوم الاحد من كل اسبوع مع أسرته فى السجن !.. ثم انتقل الى مسكن آخر أقرب الى السجن ، وبذلك صار فى استطاعته أن يفطر مع الاسرة فى ساعة مبكرة من الصباح ، وأن يمضى معها فترة أخرى فى المساء بعد فراغه من عمله الى أن يحين موعد انصراف الزائرين وغلق ابواب السجن على من فيه !

شعاع من الامل

وفى ظلام البؤس واليأس الذى ساد حياة أسرة ديكنز ، انبثق فجأة شعاع من الأمل ، مصدره ميراث صغير هبط على عميدها من حيث لا يحتسب ، فاستطاع ان يسدد

الديون التى ادت به واسرته الى الاقامة بالسجن ، ولكن تشارلز لم يستطع الاستغناء عن عمله فى المصنع ليواصل تعليمه الا بعد اشهر طويلة حين وقع خلاف بين والده وبين صاحب المصنع قريب زوجته . وكانت المدرسة التى أقنع الصبى والده بأن يلحقه بها هى « أكاديمية ولنجتن هاوس » والدراسة فيها تسير طبقا للطرائق التربوية العتيقة ، والمدرس الأول فيها هو ناظرها مستر « جونز » الطاغية الفظ الغليظ القلب ، الذى كان لا يكتفى بتوجيه الشتائم المنكرة الى التلاميذ ، بل يكيل لهم اللكمات أحيانا ، ويهوى على ظهورهم أحيانا بعصا غليظة خاصة اتخذها على هيئة السيف !

وأيا ما كان الأمر فقد عد « تشارلز » دخوله هذه المدرسة وهو فى الرابعة عشرة من عمره اكبر حادث سعيد صادفه فى ذلك الحين ، واظهر فيها تفوقا ملحوظا فى التمثيل وتاليف المسرحيات الفكهة ، كما أصدر صحيفة مدرسية ، كان يحررها ويوزعها بنفسه ، بعد ان يكتب نسخها المعدودة على أوراق ينتزعها من كراساته !

ولكن سعادة الصبى لم تلبث الا قليلا ، ثم وجد نفسه مرة اخرى مضطرا الى ترك الدراسة للبحث عن عمل يعيش منه ، لأن أسرته عادت فقيرة كما بدأت ، بعد أن نفدت البقية الباقية من الميراث القليل الذى آل الى ابيه !

كاتب فى مكتب محام

وانف تشارلز من العودة الى الاعمال اليدوية المهينة لكرامته ، وكان قد اتقن القراءة والكتابة والم بشىء من اللغة اللاتينية ، فاستطاع أن يجد لنفسه وظيفة كاتب فى مكتب محام بسيط ، بمرتب قدره ثلاثة عشر شلنا وستة بنسات فى الاسبوع ، ثم رفع مرتبه الاسبوعى الى خمسة عشر شلنا، مكافأة له على ما اظهر فى عمله من نشاط واخلاص !

وكان أبوه قد بدأ حياة جديدة بعد نفاد المال من يده ، فتعلم فن الاختزال ، والتحق بوظيفة كاتب للمحاضر فى مجلس النواب .. فأعجب تشارلز بهذه الخطة الحازمة الحكيمة التى اختطها أبوه لنفسه ، واعتزم اقتفاء أثره فى ذلك وسرعان ما اقتنى كتابا قديما فى فن الاختزال ، دفع ثمنا له كل ما ادخره من مرتبه حتى ذلك الحين ، ثم عكف على دراسة هذا الفن فى جد ورغبة صادقة حتى بلغ فى اتقانه مرتبة لم يبلغها أحد قبله فى لندن كلها ، وبذلك استطاع الحصول على وظيفة مختزل فى دار قاضي القضاة ، ثم عمل محررا برلمانيا فى بعض الصحف الصغيرة ، ولم يمض عليه فى هذا العمل بضع سنوات حتى عين محررا خاصا فى صحيفة « مورنينج كرونيكل » الكبيرة سنة ١٨٣٤ وهو فى الثانية والعشرين اذ ذاك ، وبلغ مرتبه الاسبوعى خمسة جنيهات !

فشله فى الحب

عرف تشارلز الحب ، وذاق حلوه ومره ، منذ كان فى الثامنة عشرة من عمره . ففى ذلك الحين ، ولم يكن بعد قد حصل على وظيفته فى البرلمان ، تعرف الى فتاة تدعى « ماريا بيدنل » كان أبوها صاحب مصرف متوسط فى لندن . وبادلته الفتاة الاعجاب والحب والتعاهد على الزواج، ولكن أسرتها برغم عطفها عليه لم ترض لابنتها زوجا فى مثل الحالة التى كان عليها هو من الفقر وضآلة التعليم ، وما لبثت قليلا حتى أرسلتها الى الخارج فى بعثة لاتمام دراستها العالية ، فلما عادت بعد ذلك ، كان استقبالها اياه فاترا بل باردا ، ولم تجده شيئا محاولاته المتكررة لاستعادة مودتها . ثم تزوجت بعد قليل رجل أعمال اسمه « هنرى ونتر » فانقطع بذلك آخر خيط من خيوط الآمال التى تعلق بها العاشق البائس المسكين !

اشتغاله بالقصص

وكان تشارلز قبيل التحاقه بصحيفة «مورننج كرونيكل» قد عالج كتابة قصص صغيرة عن الحياة فى لندن والريف ، ونشر سلسلة منها فى احدى المجلات الشهرية بعد أن شجعه على ذلك نشرها أول قصة بعث بها اليها بتوقيع مستعار . فاتفق مع أصحاب الصحيفة الجديدة على نقل هذه السلسلة اليها ، فى مقابل اجر اضافى قدره جنيهان فى الاسبوع ، وبذلك بلغ مرتبه الاسبوعى سبعة جنيهات . وكان اقبال القراء على هذه القصص كبيرا جدا ، مما عزز مركز الكاتب الشاب ، وما كاد يطبع المجموعة الاولى منها فى كتاب مستقل ، حتى لقى رواجا منقطع النظير ، جعله يقرر التفرغ للتاليف ، وكان ذلك سنة ١٨٣٦ وهو فى الرابعة والعشرين من عمره !

اخذ الناشرون يتسابقون الى التعاقد مع المؤلف الناجح الشاب « تشارلز ديكنز . واتفقت معه « هيئة شابمان وهول للنشر فى لندن » على اخراج سلسلة من القصص الرياضية الفكهة ، وظهر العدد الأول منها بعنوان « مذكرات بكويك » مزينا برسوم ايضاحية للفنان « سيمور » . ولكن ذلك العدد لم يلق النجاح المنشود ، ثم حدث ان انتحر الفنان سيمور ، فحل محله فى اعداد الرسوم للأعداد التالية فنان آخر أقرب اسلوبا الى روح ديكنز ، هو الفنان « هوبلت براون » . فاخذ الاقبال يزداد على هذه الأعداد حتى بلغ ما نشر منها ست حلقات . ثم قدم ديكنز لقرائه شخصية « سام ولر » التى ابتكرها فضاعف ذلك من اقبالهم على قصصه،وقفز عدد النسخ المطبوعة من الحلقة الخامسة عشرة الى أربعين الف نسخة ، بيعت كلها قبل طبعها ، فى حين أن ما طبع من الحلقة الأولى لم يزد على أربعمائة نسخة ، لم يبع الا حوالى نصفها !

شقاؤه الزوجي

وفي خلال نشر هـــذه السلسلة ، تزوج تشارلز ديكنز بكاترين هوجارث الابنة الكبرى لأحـد أصحاب صحيفة « مورننج كرونيكل » . وكانت يومئذ شابة جميلة مثقفة ، وجد في حبها له ما لم يجد من ماريا بيدنل التي احبها لأول مرة قبل ذلك ببضع سنين . وتم هـذا الزواج في ابريل سنة ١٨٣٦،ولكن تشارلز ما لبث قليلا حتى ضاق بما تبينه في زوجته من ضعف العزيمة وجمود العاطفة ، وان وجد بعض العزاء في شقيقتها « ماري » التي كانت مقيمة معها . غير ان القدر لم يسعده طويلا بهذا العزاء ، اذ توفيت ماري اثر مرض مفاجيء في مايو من السنة التالية . وكان ذلك عقب عودة الأسرة من سهرة ممتعة في احد المسارح !

وبلغ من فرط الحزن الذي شعر به ديكنز لفقد شقيقة زوجته ، انه مكث شهرا كاملا لا يستطيع مزاولة عمله ، فلم تصـدر الحلقة المعتـادة من سلسلة « مذكرات بكويك » في ذلك الشهر !

وازدادت الجفوة بين الزوجين بعـد ذلك ، برغم كثرة أولادهما ، وكان للفتاة « جيورجيتا » الشقيقة الصـغرى للزوجة ، فضل كبير في تخفيف حدة تلك الجفوة بينهما ، وكانت قد انتقلت الى منزلهما بعد وفاة ماري ، وخلفتها في القيام بمهام تدبير المنزل ورعاية الأولاد

طريقه الى النجاح

وفي سنة ١٨٣٨ بدأ نشر السلسلة الثانية من قصص ديكنز ، وهي قصة « أوليفر تويست » فرسخت شهرته الأدبيـة . ثم توالى نشـر سلاسل قصصه في الصحف ، وفي كتب مستقلة ، فأخرج خمس روايات مطولة رائعة ، ومجموعات من القصص القصيرة ، وكتابا عن « الثورة على البـابوية سنة ١٧٨٠ » . ثم سلسلة من الاحاديث عرفت باسم

« ساعة السيد همفرى » . لكنه قطع هذه السلسلة وعاد لكتابة القصص المطولة ذات الموضوع الواحد ، فأخرج قصة « دكان التحف القديمة » التى كانت سببا لذيوع شهرته فى أمريكا ايضا ، وبلغ من اثر الاقبال على حلقاتها هناك ان كانت جموع القراء تقف ساعات فى انتظار وصول السفينة التى تحمل الحلقة الجديدة الى الميناء !

وتلقى ديكنز على اثر ذلك دعوات الى زيارة أمريكا ، وقام برحلته الاولى اليها فى سنة ١٨٤٢ حيث استقبل بأعظم الحفاوة والترحيب ، ولكنه لم يجد فى مشاهداته هناك ما يطابق الصورة التى تخيلها عن الحياة فى العالم الجديد ، وصدم شعوره على الأخص ما لاحظه من تفشى الرق هناك ، كما سخط على الأساليب التى يتخذها الأمريكيون فى حياتهم الخاصة ، وكان سخطه أشد على الناشرين هناك لأساليبهم الملتوية وحيلهم العجيبة لسرقة حقوق المؤلفين الانجليز

وفى الوقت نفسه نقم عليه الأمريكيون انتقاده الصريح اللاذع لأخلاقهم وعاداتهم ، وانكر عليه المتزمتون منهم ظهوره فى حفل رقص بمدينة بوسطن وهو يرتدى صديريا من القطيفة الخضراء الزاهية ، ورباط عنق قرمزى ، وسروالا احمر ضاربا الى الزرقة ، ويضع على صدره مجموعة من الأزهار المختلفة الألوان

ومهما يكن الأمر ، فقد اتم رحلته فى امريكا وبلغ مدينة « سان لويس » فى اقصاها غربا ، وبعد أن عاد لانجلترا اخرج كتابا عن هذه الرحلة سماه « اللمحات الأمريكية » وضمنه كثيرا من الانتقادات اللاذعة للامريكيين . لكنه برغم ذلك لم يتردد فى الرحلة الى أمريكا مرة ثانية بعد سنوات

وقد كان لمواطنيه الانجليز انفسهم نصيب كبير من انتقاداته ، فقد اخرج فى سنة ١٨٤٤ قصته « مارتن شوز لويت » وضمنها حملة شديدة على بعض العيوب المتأصلة فى الانجليز ، وفى مقدمتها الأثرة والنفاق . ولم تلق

هذه القصة مثل الرواج الذى لقيتـه مؤلفـاته السابقة ، اما لعنف الحملة الانتقادية التي تضمنتها ، واما لأن حوادثها كانت تنطوى على كثير من التعقيد !

وضاقت به الحياة في انجلترا بعد ذلك ، أو ضاق هو بها ، فقام برحلة فى أوربا مصطحبا أسرته ، وكان ذلك عقب نشر كتابه « أغنية عيد ميلاد » فى سنة ١٨٤٣ . فزار ايطاليا وفرنسا ، وأنتج خلال ذلك كتبا وروايات عدة ، آخرها كتاب « دومبى وابنه » الذى نشره عقب عودته الى لندن ، فجدد ثقة الجمهور فيه واعجابه بأسلوبه الخاص !

مسرحيـاته

اتجه ديكنز بعد عودته من رحلته الأوربية الطويلة الى اشباع هوايته القديمة الأصيلة للمسرح ، فتوفر على اعداد مسرحية « بن جونسون » وأشرف على اخراجها وعرضها واشترك فى تمثيلها مع نخبة من أصدقائه اختارهم لذلك . وبذل فى ذلك كله جهدا مضنيا حطم صحته ، ولا سيما بعد توالى عرض تلك التمثيلية فى العاصمة والريف

وفى سنة ١٨٥٠ تولى تحرير صحيفة « ديلى نيوز » وبذل برغم سوء صحته نشاطا كبيرا فى سبيل العمل بالشعار الذى اتخـذه لنفسه وهو « مكافحة الشر والعمل لخير الفقراء وسعادة المجموع » . على أنه زهد فى عمله الجديد بعد بضعة اشهر فاعتزله وتفرغ لاصدار مجلة اسبوعية خاصـة به سماها «الكلمات المنزلية» واستمر فى اصدارها ثمانى سنين بنجاح كبير ، ثم أعاد تنظيمها سنة ١٨٥٩ واختار لها اسما جديدا هو « على مدار العام » . ولم يغفل خلال اصداره مجلته هذه فى عهديها الاول والثانى عن انتاج مؤلفاته الاخرى من الكتب والروايات ، فأخرج قصة دافيد كوبر فيلد » : ثم قصة « المنزل الموحش » . فقصة « أوقات عصيبة » : وكان فى هذه المؤلفات كلها يصور مختلف الوان الحياة التى

درسها وخبرها بنفسه منذ طفولته ، كما يصور مختلف الشخصيات التى عرفها وكان لها فى حياته اثر ملحوظ ، فضلا عن تصوير حياته الخاصة وتحليل ما يختلج فى نفسه من مشاعر واحاسيس

حياته الأخيرة

وفى سنة ١٨٥٨ ، تم الاتفاق بينه وبين زوجته على ان يفترقا ، وذهب ابنهما الاكبر ليعيش مع والدته ، بينما عاش بقية الاولاد مع ابيهم وخالتهم جورجيتا ، ولم يمض قليل حتى انتقلوا الى الاقامة معه بقصر « تل كاد » الذى اشتراه ليحقق حلمه القديم الذى طالما راوده فى طفولته البائسة حين كان يسكن مع ابيه وامه كوخا متواضعا بالقرب من ذلك القصر التاريخى العظيم !

وبدا اول الأمر ان ديكنز اخلد الى حياته الجديدة فى هذا القصر ، حيث اخذ يكثر من اقامة الحفلات لأصدقائه ومعارفه ، ولكنه ما لبث قليلا حتى عاوده حنينه القديم الى التمثيل ، فقام بجولات فى انحاء انجلترا واسكتلندا ، كان خلالها يظهر على المسارح لقراءة فصول من رواياته ، فيلقى من الجمهور اشد الاقبال والاعجاب

وفى خلال هذه الجولات ، اخرج رواياته الأخيرة : « قصة مدينتين » و « الآمال العريضة » و « صديقنا المشترك » . ثم زار امريكا للمرة الثانية سنة ١٨٦٧

وبعد عودته الى لندن فى سنة ١٨٧٠ بدا تاليف روايته فى تلك السنة بوعكة مفاجئة بعد أن قضى يومه عاكفا على الكتابة فى ركنه المختار بحديقة قصر تل كاد ، واغمى عليه وهو على المائدة ، فنقل الى فراشه ، ودعى الأطباء الى اسعافه وعلاجه . ولكنه بقى فى غيبوبة حتى اعلنت وفاته فى اليوم التالى . فكان لنعيه صدى اليم فى انجلترا وفى مختلف انحاء اوربا وامريكا

الشقيقان رايت

الشقيقان رايت

حققا لاول مرة معجزة الطيران الآلى .. ولكنهما قوبلا بالجحود ، فلم يثبط ذلك من عزمهما وانصرفا الي تحسين الآلة الطائرة التى اخترعاها حتى قطعا بها اكثر من ٢٤ ميلا »

عاملان حققا معجزة الطيران

فى خريف عام ١٩٠٣ ظهر مقال لعالم شهير يثبت اثباتا قاطعا أنه يستحيل على البشر أن يحلقوا فى الجو . وكان البشر منذ قرون تراودهم الأحلام أن يقلدوا الطير فى طيرانه . وحاول كثير من أصحاب العقول الراجحة أن يحلوا هذه المشكلة ولكنهم لم يستطيعوا

وانه لمن أعجب الأمور الا تمضي اشهر ثلاثة بعد ظهور مقالة ذلك العالم حتى يتحقق الحلم الذى كان الناس يرونه مستحيلا . وكان الفضل فى تحقيق معجزة الطيران راجعا الى اثنين من صانعى الدراجات ، هما الشقيقان رايت

عائلة دينية

شهدت ولاية أوهيو مولد « ولبر واورفيل » رايت . وكان والدهما قسيسا يدعى «ملتن رايت» وأمهما « سوزان كويرنر رايت » . وقد ولد ولبر فى السادس عشر من أبريل عام ١٨٦٧ فى مزرعة غرب ميلفيل ، واما شقيقه اورفيل ، فقد ولد فى التاسع عشر من اغسطس عام ١٨٧١ فى مدينة دايتون .. وكان أبوهما الطيب القلب احد رجال كنيسة الاخوان المتحدين ، مارس التعليم حينا فى كلية هارتسفيلد ، ثم قام فى عام ١٨٦٩ على تحرير جريدة دينية تنشرها هذه الهيئة الدينية فى دايتون . ثم اضطرت أسرة رايت الى الانتقال من موطنها وحلت فى مدينة سيدار رابيدز ، ثم فى رتشمند وهناك كان مهد طفولة الشقيقين ولبر ، ، وأورفيل،

فقد نشأ هنـــاك فى رفقة اخويهما الكبيرين « ريشلين » و « لورين » وأختهما الصغرى « كاترين » ..

وفى شهر يونيـــه من عام ١٨٨٤ عاد الأب ملتـــون مع اسرته الى دايتون واستقروا مرة أخرى فى منزلهم الأول وكان لا يزيد على كوخ خشبى به غرف سبع. **وهناك واصل ولبر دراسته** مستقلا بنفسه ، بعد أن انتهى من دراسته فى رتشموند ، وهناك كذلك استمر اورفيل فى دراسته الثانوية.

ولم تمض على هذه الاسرة الوادعة فى مسكنها المتواضع الا بضع ســـنوات حتى تفرق شملها بموت الأم العزيزة سوزان رايت،ثم ما هو الا قليل حتى تزوج لورين وريشلين، ونزحا ليؤسس كل منهما لنفسه أسرة . ولكن عرى المودة بين آل رايت زادت توثقا وتماسكا

ميكانيكية الحيوان

وكانت لهم فى الطابق الأسفل من المنزل مكتبة **وكان ولبر ، وارفيل ،** يعكفان فيها على الدرس ، اذ كانت تحوى ــ فيما حوت كتاب التراجم لبلوتارخ وطائفة من القصص والأساطير، وكتاب جيبون عن انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، ثم تواريخ فرنســا وانجلترا . وقـــد جذب انتباههم اكثر ما جذب كتاب **ماريه عن ميكانيكية الحيوان** . ثم الموضوعات العلمية فى دائرة المعارف البريطانية ودائرة معارف «شامبر» التي احتوتها المكتبة ايضـــا . وكم من مرة قلب الصـــبيان صفحات هذه الكتب منذ طفولتهم الاولى

وكان اورفيل رايت خلال سنى مراهقتــه يهتم اهتماما بالغا بالطباعة . فاعد لنفسه مطبعة صغيرة وكان يقوم باعمال شتى فى الطباعة والنشر بمساعدة شقيقه ولبر

يشتغلان بتجارة الدراجات

وفى سنة ١٨٨٨ ، شرع « اورفيل » فى استغلال خبرته

بالطباعة ، فاصدر مجلة اسبوعية صغيرة سماها « اخبار الجانب الغربي » واستأجر لها مكتبا خاصا ، ثم شجعه رواجها في عامها الأول ، فحولها الى جريدة يومية باسم «خبر المساء» ولكن هذه الطفرة ما لبثت أن قضت عليها بعد قليل !

ومضت بعد ذلك سنوات ، امضاها الشقيقان في انتاج بعض المطبوعات ، ثم حولا نشاطهما المشترك الى تجارة الدراجات التي بلغ الاقبال عليها ذروته في ذلك الحين ، فأسسا «شركة رايت» لصنعها وبيعها فبدأت أعمالها في أواخر سنة ١٨٩٢ ، وانتقلت من نجاح الى نجاح سنة بعد أخرى . ولم تمض ثلاث سنوات حتى كان لها مبنى فسيح خاص ، وغمرت الأسواق بمئات من مختلف أنواع الدراجات ، ومن بينها دراجة شعبية تحمل الشعار الخاص بالشركة، ولا يزيد ثمنها على ١٨ دولارا ، وهو يومئذ ثمن زهيد كفل لها الانتشار في جميع الانحاء !

دراستهما للطيران

لم يكتف الشقيقان : « ولبر » و « أورفيل » بنجاحهما الباهر في « شركة رايت للدراجات . فأنشآ فروعا لها لانتاج الأطارات والجرارات والآلات الكاتبة والحاسبة وغيرها ، وقد لازمهما التوفيق والنجاح في كل هذه الأعمال !

على انهما كانا مولعين بدراسة الطيران ، وبدأ ذلك منذ حداثتهما حين أهدى اليهما والدهما لعبة هي نموذج صغير لطائرة ، صنعه فرنسي يدعى « بينو » من الخيزران والورق والفلين وخيوط من المطاط . وفي سنة ١٨٩٥ ، حدث أن أطلعا في احدى المجلات على مقال عن « طيران الانزلاق » كتبه الماني يدعى «أوتو ليلنتال» . فكان له أكبر الأثر في نفسيهما، وفي تغيير مجرى حياتهما ، اذ عاودهما الحنين الى هوايتهما المفضلة الاولى . ثم اشتد هذا الحنين حينما علما بعد قليل بمصرع « ليلنتال » المذكور أثناء تجربته طائرة صنعها بنفسه

محاولا الطيران بها . وسرعان ما قررا التفرغ لدراسة الطيران وما طرا عليه من تحسينات

واتصل الشـــقيقان بالدكتور « لانجلى » مدير معهـــد « سمبثون » فى وشنطن ليدلهما على المراجع التى تفيدهما فى دراساتهما وابحاثهما الجديدة ، فكتب اليهما فى يونيـــة من سنة ١٨٩٩ يوصيهما بالاطلاع على كثير من الكتب والتقارير

وعكف الشقيقان « رايت » على دراسة كل هذه المراجع وغيرها ، ومنـــاقشة ما تضمنته من بيـــانات وملاحظات ومقترحات ، فتبين لهما ان مشكلة الطيران الكبرى تتمثل فى ضرورة الوصول الى طريقة لحفظ توازن الطائرة فى الجو ، ووجها كل عنايتهما واهتمامهما الى البحث والدرس واجراء مختلف التجارب لايجاد هذه الطريقة. وفيما كان «اورفيل» يقلب بين يديه صندوقا من الورق المقوى لاستخدامه فى بعض التجارب ، لاحت له فجاة فكرة لايجاد الطريقة المنشودة . وما شرح هذه الفكرة لشقيقة « ولبر » حتى أقرها ، ثم شرعا من فورهما فى تنفيذها ، فصنعا طائرة طولها خمس أقدام ، ووصلا جناحيها بخيوط يمكن بها تحريكهما وتغيير وضعهما بما يتفق مع درجة الضغط الجوي ، كما زودا هذه الطائرة بذيل فى مؤخرها ليعاون على ارتفاعها . وقد كللت بالنجاح تجربة الطائرة الجديدة باطلاقها فى الجو خارج مدينة دايتون وأمكن حفظ توازنها بتحريك جناحيها بواسطة تلك الخيوط !

اول تجربة للطيران

وفى سنة ١٩٠٠ ، اتصل « ولبر » بالمهندس « اوكتاف شانوت » صاحب كتاب « تاريخ الطيران الآلى » وكان يعيش فى شيكاغو حينذاك ، واجرى تجـــارب عدة فى طيران الانزلاق . وكانت نتيجة هذا الاتصال ان وضع الشقيقان تصميما لطائرة زلاقة جـــديدة ، واختارا لتجربتهـــا منطقة « كيتى هوك » على ساحل كارولينا الشمالية ، مسترشدين

بآراء « شانوت » فى هذا الشأن ، وبما انتهت اليه دراستهما لسرعة الرياح وتقلبات الجو . وهناك فى هذه البقعة النائية ، الخاليــة الا من محطتين للانقاذ والأرصــاد الجوية وبضعة أكواخ متناثرة للصيادين ، بنى الشقيقان معسكرا متواضعا ، نقلا اليه كل ما يحتاجان اليــه لصنع طائرتهما الجـديدة ، وشرعا فى صنعها فى سبتمبر من تلك السنة ، فجعلا هيكلها اطارا كالأضلاع صنعاه من خشب الحور ، وغطياه بالتيل الفرنسي الأبيض ، وزوداها بجناحين طول كل منهما ١٧ر٥ قدما قابلين للتحرك طبقا لنظريتهما السابقة ، كما زوداها بدفة متصلة بمقدمها ، وجعلا لها زلاقات فى موضع العجلات لتنزلق بها على رمال الشاطىء

وأسفرت تجربة الطائرة عن نجاح طريقتهما المبتكرة لحفظ توازن الطائرة فى الجو . وفى صيف سنة ١٩٠١ عادا الى « كيتى هوك » ومعهما زلاقة جديدة طول كل من جناحيها ٢٢ قدما ، ووزنهــا ٩٨ رطلا ، وهى أكبر حجما من زلاقة السنة السابقة ومساحة الرفع بها أوسع . وزارهما « شانوت » مشجعا ، ونجحت تجاربهما فى هذا العام نجاحا عظيما كان الأول من نوعه فى طيران الانزلاق . وقد تبين لهما من هذه التجــارب أن طريقتهما المبتكرة لحفظ التــوازن يجب أن يؤيدها ذيل عمودى للطائرة ، كمــا تبين لهما وجوب اعادة النظر فيما اعتمدا عليه من نظرية أساطين العلماء المختصين فى تصميم الطائرة . وعلى هذا قاما باعداد جهاز هوائى بأعلى مبنى شركتهما ، هو صندوق خشبى مربع طول ضلعه قدم ونصف ، سلطا عليــه من تحته مروحة آليــة ، ثم أمضيا الشهرين الأخيرين من تلك السنة فى اختبــار ما يزيد على مائتين من الأجنحة المختلفــة الأشكال والأحجام والأوزان للوقوف على حقيقــة مدى تأثر أسطحها المنحنية بضغط الهــواء . وكانت النتيجــة أن كشــفا عن أخطــاء عدة فى التصميمات السابقة ، ووضعا بدلا منها بيانات دقيقة كل

الدقة ما زال العمل يجرى على اساسها حتى الآن !

وفى خلال السنتين التاليتين ، اجرى الشقيقان رايت ما يزيد على الف تجربة فى طيران الانزلاق ، زادا خلالها طول جناح الطائرة عشر أقدام واضافا الى دفتها ذيلا عموديا طبقا للحقائق الجديدة التى انتهيا اليها .. ثم حولا هذا الذيل الى دفة متحركة وسجلا نموذجا جديدا على هذا الأساس ، فاصبح بذلك سر اتزان الطائرة حقا محفوظا لهما

بدأ الشقيقان بعدئذ خطوة مهمة اخرى هى بناء طائرة تستطيع الارتفاع فوق الأرض والتحليق فى الجو ، وقام مسبك دايتون باعداد هذه الطائرة طبقا للتصميم الدقيق الذى اعداه بمساعدة « شارل تيلور » . وكانت زنتها حوالى مائتى رطل ، وقوتها نحو اثنى عشر حصانا ، وقد وفقا الى تزويدها بمروحة خاصة من ابتكارهما ، وبلغ عرض جناحيها اربعين قدما ، ولكل منها طرف متحرك ، ومجموع زنتها براكبها نحو ٧٥٠ رطلا .. ثم عادا الى « كيتى هوك » لتجربتها هناك، فتمت التجربة فى ١٤ من ديسمبر سنة١٩٠٣ فتحركت الطائرة وفيها « ولبر » وجرت على خط حديدى أعد لذلك بأعلى تلال « كل ديفيل » ثم ارتفعت به فى الهواء وحلقت فترة قصيرة لم تزد على ثلاث ثوان ونصف ثانية ؛ ثم هبطت الى الارض. وفى اليوم السابع عشر من ذلك الشهر، اعيدت تجربتها ، وركبها فى هذه المرة الشقيق الثانى « اورفيل » فبقى بها فى الجو ١٢ ثانية ، برغم سرعة الريح حينذاك اذ كانت لاتقل من ٢٧ ميلا فىالساعة. وفى التجربة الثالثةاستمر تحليق الطائرة ٥٤ ثانية،وعند هبوطها اصيبت بصدع حال دون طيرانها حتى آخر ذلك العام

وهكذا حقق الشقيقان لأول مرة معجزة الطيران الآلى ،

فصار حقيقة واقعة ، بعد أن ظل قرونا وهو لا يزيد على حلم يراود خيال الانسانية !.. ولكن هذه المعجزة الخالدة لم تجد يومئذ ما تستحقه من الايمـان والتنويه بها ، فلم يصدقها أكثر الناس ، وأهملت الصحف شأنهـا فيما عدا صحيفة واحدة لم تسلم الأنباء التى نشرتها عنها من التحريف!

ولم يثبط ذلك الجحود من عزم الشقيقين العبقريين ، وضنا بوقتهما على اضاعته فى مجادلة المكذبين والساخرين ، وانصرفا الى تهذيب الآلة الطائرة التى اخترعاها وادخال مختلف التحسينات على صنعها بحيث تصبح سهلة القيادة ويتسع نطاق الانتفاع بها • وما مضت سنه على ذلك حتى انتهت أبحاثهما وتجاربهما المتواصلة الى نصر باهر آخر ، فاستطاعا أن يحلقا بطائرتهما فى الهواء خمس دقائق كاملات، مع التحكم فى اتجاهها • ورآها الناس وهى ترتفع فى الجو من الأبراج العالية التى أعداها لذلك ، ولم يستطيعوا أن يكتموا عجبهم واعجابهم حين شاهدوها تدور عدة دورات فى الفضاء ثم تهبط الى ميدان التجربة بسلام !

وفى السنة التالية ، ادخل الشقيقان على آلتهما تحسينات عدة أخـرى ، شملت الدفة والمروحة والجنـاحين ، والآلة نفسها .. وكان عجب النظارة واعجابهم أشد حينما حلقت الطائرة فى هذه المرة أكثر من نصف ساعة ، وقطعت خلال ذلك أكثر من ٢٤ ميلا ! .. ولم يسع الصحف بعد ذلك الا العدول عن سخريتها بالشقيقين المخترعين ، وكانت صحف أوربا ونواديها أكثر احتفالا وتكريما لهذا الاختراع الجديد المفيد ، ولكن لم تعره الصحف الأمريكية اهتماما جديا الا بعد ظهوره فى أمريكا نفسها بثلاث سنوات !

أول تجربة رسمية فى أمريكا

أجريت التجربة الرسمية الاولى لطائرة الشقيين «رايت» فى أمريكا ، بمدينة « فورت مير » فى ولاية فرجينيا ، وركب

الطائرة « أورفيل » على مشهد من الجموع الحاشدة التى حرصت على مشاهدة التجربة

وتوالت تجارب طيران الشقيقين ، لحساب الجيش الأمريكى ، وكان الحد الأقصى لسرعة الطائرة ، طبقا للاتفاق ، اربعين ميلا فى الساعة ، ولكنهما وفقا الى تسجيل زيادة على ذلك الحد ، مقدارها ثلاثة اميال !

وفى اكتوبر سنة ١٩٠٩ ، انشئت فى أمريكا شركة لانتاج الطائرات جعلت مقرها فى نيويورك،واختارت لاقامة مصانعها مدينة « دايتون » حيث نشأ الشقيقان المخترعان

وفى الوقت نفسه بدأت الدول الاخرى تزيد فى عنايتها بهذه الصناعة الجديدة ، فانشئت شركة مماثلة فى فرنسا والمانيا .. ثم فى غيرهما من البلاد !

جورج کارفر

جورج كارفر

زنجى خرج الى الحياة محروما من كل شىء . ولكنه استطاع بالرغم من ذلك
ان يخلد اسمه فى سجل العلماء العاملين الذين قدموا للبشرية اجل الخدمات

الزنجى النابغ

كان مولده فى أمريكا خلال الأيام السوداء للحرب الأهلية التى اجتاحتها فى منتصف القرن الماضى ، وكان هو نفسه زنجيا أسود ، وبدا حظه يومئذ أشـــد سوادا من لونه ومن الظروف التى ولد فيها . فقد خرج الى الحيــاة محروما من كل شيء .. حتى من اسم الأسرة التي ينتمي اليها ، فأبوه غير معروف ، وأمه « مارى » جارية زنجية مملوكة لصاحب مزرعة صغيرة فى قرية « دياموند جريف » فى ولاية « ميسورى » يدعى « موسى كارفر » .. وهكذا لم يكن هناك بد من الاكتفاء باختيار اسم « جورج » لكى يعرف به بين من ضم اليهم من العبيـــد القليلين المملوكين لصاحب المزرعة !

وقبل أن يجاوز مرحلة الطفولة ، وقع فى ايدى جماعة من تجار الرقيق المنتشرين فى تلك الأصقاع حينذاك، وكادوا يذهبون به الى حيث يبيعونه فى مكان آخر ، ولكن صاحب المزرعة وزوجته رق قلباهما له ، فأنقذاه فى آخر لحظة من ذلك المصير المجهول الرهيب .. ولم يكلفهما ذلك أكثر من حصان افتدياه به من النخاسين الذين اختطفوه !

ومنذ ذلك الحين ، صار الزنجي الطفل « جورج » موضع عطف خاص لدى سيديه ، وما كاد يشب عن الطوق ويبلغ السن التى تؤهله للعمل فى المزرعة مساعدا لزملائه العبيد الكبار، حتي ضن به سيداه الطيبان على العمل المرهق، واكتفيا بأن عهدا اليه فى أعمال يسيرة أخرى ، كالاشتراك فى اطعام

الدواجن ، وتنقية حديقة المنزل من الحشائش الطفيلية .
وعرف زملاؤه موضعه عند صاحبى المزرعة ودالته عليهما ، فتركوه وشأنه ، يلهو ويلعب ويمرح فى الحديقة المجاورة للمزرعة . وعرف بينهم بهوايته المفضلة حينذاك ، وهى التجول فى الغابة ، والتامل فى اشجارها واعشابها وصخورها، ثم العكوف بعد عودته على فحص ما جمعه من غرائب الحجارة والنبات ، واطلقوا عليه من أجل ذلك لقب « طبيب الغابة »

ولم يمض قليل حتى أعلن سيداه انهما اعتقاه ، وبذلك تحققت حريته من الوجهة الرسمية . ثم استمرا فى اغداق عطفهما عليه ، وعاملاه كانه ولدهما ، واخذت السيدة « كارفر » فى تعليمه القراءة والكتابة ، مستعينة على ذلك بكتاب قديم فى الهجاء وجدته فى المنزل ، وكان اقباله شديدا على التعلم ، فما لبث قليلا حتى وعى ذهنه كل ما فى ذلك الكتاب من دروس !

والح الزنجى الصبى فى أن يواصل الدرس ، وتردد سيداه القديمان فى أول الأمر ، اذ لم تكن هناك مدرسة يستطيع الالتحاق بها الا مدرسة مدينة « نيوشو » وهى تبعد اميالا من المزرعة ، ثم لم يسعهما ازاء الحاحه المستمر الا اجابة رغبته فسمحا له بالتوجه الى تلك المدينة كى يلتحق بمدرستها . وقد سافر اليها وحده ، وبات ليلة فى طريقه اليها ، مفترشا كومة من العشب . على انه سرعان ما نسى كل ما لقيه من تعب وعناء ، حينما وصل الى المدرسة فى اليوم التالى ، وقدر له أن يقبل وهو الزنجى الأسود فى عداد تلاميذها البيض !

لم يكن لونه وحده ما اعترض طريق تعلمه ، فقد كان عليه ان يدبر أمر معيشته فى خلال ذلك ، لكنه عرف بهمته وطموحه وصبره الجميل كيف يذلل جميع العقبات .

وقضى سنة فى تلك المدرسة الصغيرة استوعب خلالها كل ما كانت تمنحه لتلاميذها من الدروس ، ولم يحل دون احرازه هذا التقدم والتفوق على أقرانه البيض فيها ، أنه كان يقضى جانبا كبيرا من وقته فى العمل لكسب رزقه !

وكان فى أول الأمر يقوم بأعمال مضنية تافهة فى الوقت نفسه ، كالخدمة فى المنازل ومساعدة الطباخين والغسالين ، ثم بدأ يختار لنفسه أعمالا تتفق ورغبته فى الاستزادة من العلم ، فكان يعمل فى مساعدة الخياطين والنساجين وصانعى السجاد والقائمين بالتطريز والحفر ، ومن اليهم . وبذلك أتقن كثيرا من الصناعات الفنية ، بجانب الحصول على نفقات دراسته الاخرى ومعيشته

وبقى هذا شأنه فى البلاد الكثيرة التى رحل اليها وعاش فيها ملتحقا بمدارسها الابتدائية والثانوية،الى أن تركز عمله أخيرا فى انشاء مغسل خاص به فى البلد الذى يقيم به . واستطاع بحسن سياسته واتقانه عمله أن يجتذب الى مغسله كثيرين من العملاء ، مما زاد فى دخله ، وجعل فى استطاعته أن يعيش فى سعة من الرزق ، اذا هو اتخذ من هذا العمل حرفة له

غير أن همته العالية أبت عليه أن يقف عند هذا الحد ، وآنس من نفسه استعدادا للدراسة العليا ، فأرسل الى « جامعة هايلاند » طالبا الالتحاق بها ، ولم يتردد لحظة فى بيع مغسله ليحصل على أجر السفر اليها حين جاءه الرد بقبول طلبه !

وهنالك فى مكتب المسجل بهذه الجامعة ، فوجىء الطالب الزنجى بانهيار كل ما شاده من صروح الآمال ، اذ تبين أن الجامعة قبلت طلبه من غير أن تفطن الى أنه زنجى ، فى حين انها لا تقبل فى كلياتها غير الطلبة البيض !

وكانت هذه الصدمة القاسية جديرة بأن تبعث اليأس الى قلب الطالب الزنجى الشاب ، ولكنه لم يكن يعرف اليأس ،

فتلقى الصدمة بروح قوية عالية ، بل حرص على انقاذ مسجل الجامعة من مازقه الحرج ، فسحب طلب التحاقه المقبول بها ، ثم انصرف بعد أن حياه مبتسما شاكرا ، مع أنه لم يكن يملك حتى قوت يومه ، اذ انفق كل ما حصل عليه من بيع مغسله فى اجر سفره على أمل الالتحاق بالجامعة !

وفى السنة التالية ، سنة ١٨٩٠ اتيح للطالب الزنجى الشاب ان يحقق امنيته الكبرى ، فقبل طلب التحاقه بجامعة « سمبسون » الحرة فى ولاية « ايووا » . ولم يقف توفيقه عند حد قبوله بها برغم زنجيته واضطراب دراسته السابقة، بل شفع له ذكاؤه وحرصه الشديد على التعلم ، فسجل اسمه فى كلية الآداب ، وسمح له فى الوقت نفسه بأن يدرس البرامج التى تتفق مع ميوله ومؤهلاته فى كلية العلوم !

وفى قسم الفنون بكلية الآداب ، وجد جورج كارفر معونة صادقة كبيرة من الآنسة أتابد Etta Budd رئيسة القسم ، فامضى السنوات الثلاث التي لبثها بالجامعة ملازما حلقات دروسها الفنية ، حيث اهله استعداده للتقدم يوما بعد يوم فى ميدان الفن . واستطاع فى سنة ١٨٩٣ عرض مجموعة من لوحاته فى معرض شيكاغو الدولى فكانت محل التقدير والتكريم !

وكتب جورج كارفر الى بعض خلصائه من اهل قريته واصفا شعوره بالغبطة والفخر لهذا النجاح الذى احرزه ، كما اثنى على استاذته الآنسة اتابد اجمل الثناء ، وقال عن ايامه الاولى بالجامعة : « انها كانت مليئة بالتعب والشقاء ، وقد كدت أهلك جوعا لعدم الاقبال على المغسل الذى انشاته لأعيش منه ، اذ انصرف عنى الناس لغير سبب سوى لونى الأسود ، ولكنى لم أيأس ، ومضيت فى سبيلى صابرا مثابرا حتى تبدلت الحال ، فاقبل العملاء على مغسلى ، وصار الجميع يلقوننى بالبشر والترحاب فى الجامعة ونادى الموسيقى وملاعب الكرة وغيرها من المنتديات العامة »

وسألته الآنسة اتابد عما يعتزم عمله بعد ان اتم دراسته الفنية ، فلم يجد أول الأمر ما يجيب به عن هذا السؤال ، ثم ما لبث قليلا حتى وجد الجواب ، وعجب من نفسه كيف غفل عنه فى حين انه كان يفكر فيه ليل نهار .. ولم يكن العمل الذى اعتزم القيام به بعد اتمامه دراساته الفنية الا دراسة العلوم الزراعية والميكانيكية » لكى يستطيع ان يقدم خدمات نافعة لقومه السود !

وهكذا التحق جورج كارفر بكلية الزراعة فى جامعة أيووا، وكان من حسن طالعه ان توثقت صلاته فيها بالأستاذ جيمس ولسن مدير المحطة الزراعية،والاستاذ هنرى كانتول والاس ، أستاذ الزراعة بالكلية ، فلقى منهما كل عون وتشجيع وتقدير ، وبقيت صلته الوثيقة بهما اكثر من ثلاثين عاما بعد تخرجه فى الكلية وتعيينه مدرسا بها سنة ١٨٩٤

لبث جورج كارفر حوالى سنتين مدرسا فى الكلية التى تخرج منها ، وقد كان خلالهما موضع الثناء المستطاب من ادارة الجامعة وأساتذتها وطلبتها ، لما لمسوه جميعا من اخلاصه فى عمله ، وحسن معاملته لهم . وفى خلال السنة الثانية تحققت أمنيته الكبرى اذ كتب اليه معهد توسكيجى Tuskegee يعرض عليه رياسة قسم الزراعة الذى انشىء فيه . فقبل هذا العرض فورا . وكان هذا المعهد قد انشىء حديثا ليكون مركزا لتدريب الشبان المثقفين الزنوج واعدادهم لتعليم ابناء جلدتهم وتثقيفهم

ولو ان رجلا آخر غير كارفر عين رئيسا لذلك القسم ، لما رضى ولما استطاع البقاء فيه شهرا واحدا ، ذلك لأن مجموع الطلاب الذين تيسر الحاقهم بالقسم المذكور لم يكن يزيد على ثلاثة عشر طالبا ، لا يجمع بينهم سوى اللون والرغبة فى

الدراسة . وهم بعد ذلك مختلفون كل الاختلاف من حيث الاستعداد !

ولكنه كان فيما بينه وبين نفسه قد اقتنع بانه وضع قدمه فى أول الطريق الصحيح الى الغاية التى وهب حياته للعمل على بلوغها . ولم يكن غير الموت شيء يستطيع أن يثنيه عن المضى قدما فى هذا الطريق

وسرعان ما أعد كارفر برنامجا مرنا للدراسة يلائم طلبة القسم جميعا ، ولم تقف ضآلة الميزانية حائلا بينه وبين تزويد القسم بعمل بديع مفيد ، فلم تمض اسابيع حتى انشأ هذا المعمل ، مستعينا بما وجده من الأشياء المهملة فى مخازن المعهد والمناطق المجاورة له من قطع السلك والحبال ، والواح الصفيح ، والزجاجات القديمة المكسورة والجرائد المهملة وما اليها ، ومجموعات من الحشرات المنتشرة فى تلك الأصقاع

وكان يعامل تلاميذه كانهم اخوته الصغار ، فيشعر كل واحد منهم بانه يختصه بكل رعايته وعطفه ، ولا يدخر جهدا فى سبيل تدريبهم على تطبيق ما يزودهم به من علم غزير ، أو فى سبيل الترفيه عنهم لتجديد نشاطهم وتحبيب العمل اليهم . وبذلك كله اخذ عدد الطلاب فى القسم يزداد عاما بعد عام ، كما اخذ المعمل فى الوقت نفسه ينتقل من حسن الى أحسن ، بفضل جهوده المتواصلة ليل نهار !

□

وبعد سنوات ، راى كارفر ان عمله فى المعهد وحده لا يكفى لبلوغ الغاية التى ينشدها ، فأخذ يطوف من حين الى حين بمناطق الجنوب ، حيث يحضر اجتماعات الفلاحين فى قراهم النائية واسواقهم وحقولهم ، وهناك يتبسط معهم فى الحديث ، ويزودهم بارشاداته ونصائحه الزراعية المفيدة،

ويدعوهم الى زيارة مركز الأبحاث الزراعية الذى انشأه فى المعهد ، لكى يقفوا على مزيد من المعلومات النافعة لهم

وفى هذه الرحلات والزيارات المتعددة ، أخذ كارفر يدعو الفلاحين الى زراعة محصولات أخرى كالبطاطا والفول بدلا من الاكتفاء بزراعة القطن ، مؤكدا لهم أن تعدد المحصولات المزروعة مما يعود عليهم بفائدة أكبر ، وأنه فى الوقت ذاته ضرورى لضمان التربة وجودتها وقدرتها على الانتاج

وكانت دعايته هذه لا تجد قبولا من الفلاحين الذين يستمعون اليها ، لخروجها على ما ألفوه ، ولخشيتهم عواقب الاقدام على التجديد . ثم شاء القدر أن استجاب له بعضهم ، فزرعوا مساحات صغيرة من أرضهم فولا بدلا من القطن ، فكان ربحهم من ذلك كبيرا .. وشجعهم هذا كما شجع غيرهم فزادت المساحة المزروعة فولا فى السنة التالية الى حد كبير ، بحيث ضاقت الأسواق عن تصريف محصوله الكثير ، وضاعت بذلك جهود زارعيه وأصيبوا بخسارة فادحة بدلت اعجابهم بكارفر سخطا ونقمة عليه !

وفى سنة ١٩٢١ ألفت فى وشنطن لجنة لبحث الوسائل الكفيلة بحماية المحصولات الزراعية ، ودعى كارفر الى اجتماعاتها ، حيث قوبل بفتور ، ولم يخف أكثر الأعضاء سخريتهم من الزنجى الكهل الطويل الذى دخل عليهم مثقلا بأحمال من الحقائب والغرارات ، وحينما طلب الكلام ليدلل على صحة الفكرة التى يدعو اليها ، لم يسمح له بأكثر من عشر دقائق ، حتى لا يضيع وقت أعضاء اللجنة الثمين

ولم يزد كارفر على أن ابتسم شاكرا للجنة ، ثم فتح حقائبه وغراراته ، واخذ يخرج منها نماذج عدة مختلفة مما استخرجه فى معمل المعهد من مشتقات الفول والبطاطا . وقد بلغ عددها ١٤٥ بين دقيق وقهوة ولبن وجبن وطلاء للوجه ومخللات ودهان للشعر ، وحبر ، وطلاء للبيوت ، وغيرها

وهكذا اضطر أعضاء اللجنة الى الاصغاء بكل جوارحهم الى الشرح الذى القاه عليهم العالم الزنجى الكهل الطويل ، عن كل مستخرج من هذه المشتقات . وامتد حديثه لا عشر دقائق كما قرروا اول الامر ، بل حوالى ساعتين !

ولم تعد المشكلة بعد ذلك مشكلة ايجاد اسواق للمحصولات الجديدة التى أشار كارفر بزراعتها الى جوار القطن ، بل صارت منذ تلك الساعة هى مشكلة العمل على مضاعفة تلك المحصولات للانتفاع بتلك المشتقات !

واستطاع كارفر بعد ذلك أن يكتشف فى معمله كثيرا من الخواص والمنافع التى كانت مجهولة للمحصولات الزراعية المختلفة ، فاستخرج من القطن كتلا للرصف ، ومن قشور البنجر والأعشاب أدوية كثيرة نافعة ، كما استخرج المطاط من القمامة ، ومن التربة الطينية فى ولاية الباما صنوفا من الأصباغ ومواد التلوين التى كان لها اكبر الاثر فى قيام مصانع كبيرة للطلاء ، جمعت ثروة طائلة بفضل ذلك الكشف العظيم!

◻

استمر كارفر خمسين سنة ، يواصل جهوده العلمية المثمرة التى عادت على أمريكا كلها بأكبر الفوائد الزراعية والصناعية

وفى سنة ١٩٤٣ توفى جورج كارفر ، بعد ان خلد اسمه فى سجل العلماء العاملين الذين قدموا للبشرية اجل الخدمات . وهناك فى رحاب معهد توسكيجى الذى قضى حياته عاملا فيه يقوم متحف صغير يحمل اسمه العظيم ، ويضم مئات المنتجات النافعة التى اكتشف استخراجها من مواد مهملة تافهة ، كما يضم امثلة للصناعات اليدوية الدقيقة التى كان مولعا بها . وفى ناحية من المتحف عرضت لوحاته الفنية التى ابدعها وصور فيها أحلامه وأمانيه لخير بلاده وخير البشرية جمعاء . وقد شاء القدر فتحققت فى حياته اكثر تلك الأحلام!

ابراهام لنكولن

ابراهام لنكولن

الفلاح الذى امتحنته الاقدار ــ وهو ما يزال فى صباه ــ بالوان مختلفة من الشقاء والحرمان ولكنه استطاع ان يشق طريقه بين الاشواك وان يصبح رئيسا للولايات المتحدة

الفلاح الذى رأس الولايات المتحدة !

فى سنة ١٨١٦ م ، وصلت الى محلة « جنتز فيل » فى اقليم « أنديانا » شمال غربى أمريكا ـ أسرة صغيرة مؤلفة من اربعة أفراد ، هم : « توماس لنكولن » عميدها الفلاح الأمى الأجير ، وزوجته الضعيفة البنية الشاحبة الوجه « نانسى هانكس » وابنهما « ابراهام » الذى لم يجاوز السابعة من عمره،وابنتهما «سارة» التى تصغره بسنتين أو ثلاث سنوات

وكان واضحا ان هذه الأسرة المهاجرة من اقليم «كونتكى» البعيدة تعانى بجانب فقرها المدقع أثقالا أخرى من الجهد والقلق والأعباء ، فقد طال سفرها فى القفر الموحش المترامى المخيف الذى قطعته ، ولم يكن لها من طعام خلال ذلك السفر الطويل الشاق سوى ما يوفق عميدها الى صيده من طير او حيوان !.. على أنها برغم ذلك كان عليها أن تواجه الوانا أخرى من التعب والعناء ، قبل أن تستقر فى كوخها الجديد ، الذى أقامته لنفسها ، فى اليوم الأول لوصولها ، من جذوع الأشجار وفروعها ، متخذة من ورقها الجاف فراشا ، ومن بقايا الجذوع والغصون وسائد ومقاعد ومناضد !.. ثم بدأ عميد الأسرة منذ اليوم التالى جهاده الجديد فى الزراعة وما اليها ، ليكفل لها القوت .. والاستقرار المنشود فى الوطن الجديد !

والدته تعلمه القراءة والكتابة

وهناك فى جانب من الكوخ البدائى البسيط ، وضع الوالدان كيسا من التبن لينام فوقه ابنهما الحبيب «ابراهام»

او « آب » كما كانا يدعوانه من قبيل التدليل . ولم يكن فى طاقتهما أن يزوداه عدا ذلك بغير الضرورى من الغـذاء ، أما الغطاء والكساء والحذاء وما اليها ، فكان حسبه منهـا سراويل من جلد الغزال ، لا تفـارق بدنه ليل نهـار . وأما تزويده بالتعليم ، فلم يكن هناك مكتب يمكن ارساله اليه كالمكتب الأولى المجانى الذى أمضى فيه شهرين فى « كونتكى» قبـل ان تغـادرها الأسرة ، ولكن امه كانت تعرف القراءة والكتابة ، فعز عليها أن يشب أميا كأبيه ، واخذت على عاتقها ان تعلمه فى اوقات فراغها بقدر ما تستطيع !

ولم يكن لدى الأم اى كتاب غير نسخة قديمة من الانجيل، فاستعانت بها على اداء تلك المهمة ، وكان لذكاء «آب» ورغبته القوية فى التعلم ، فضلا عن فرط تعلقه بوالدته ، اكبر الأثر فى تيسير مهمتها ، فسرعان ما أتقن القراءة والكتابة ، ثم اخذ فى حفظ ما تيسر من الانجيل عن ظهر قلب، فما مضت سنتان واوشك أن يتم العاشرة حتى كان قـد حفظ الكثير من آياته، ووعى معانيها واهدافها، واصبح لهذا مرموقا بالاعجاب والتقدير من والديه وجميع عارفيه !

عامل فى مزرعة

ابت الأقدار الا ان تمتحن الصبى الصغير الفقير ، بلون جديد من الشقاء والحرمان ، فما اتم العاشرة من عمره حتى فجع بوفاة والدته الحبيبة الحنون

ومنذ الشهور التالية ، بدأ «آب» جهاده فى سبيل العيش، عاملا فى المزارع المجاورة لكوخ الأسرة ، لقاء اجر زهيد ، ولكن شغفه بالقراءة لم يزايله ، واتيح له ان استعار كتاب « طواف الحاج » للمؤلف الانجليزى « بانيان » فقراه مثنى وثلاث ورباع حتى علق بذاكرته اكثر ما فيـه ، ثم اسـتعار كتبا اخـرى وقراها على هـذا النحو ، وفى مقدمتها « خرافات أيسوب» . و « روبنسون كروزو »

ووقع فى أثناء ذلك حادث كان له أكبر الأثر فى تشجيع الصبى على الاستزادة من العلم والمعرفة ، فقد تزوج والده ، وجاءت الزوجة الجديدة الى الكوخ ، ومعها أطفالها الثلاثة من زوجها الأول ، وقطع مختلفة من الأثاث ، وشىء غير قليل من الفراش والأدوات المنزلية . وهكذا أتيح له ـ لأول مرة فى حياته ـ أن ينام فى فراش مريح . ووجد من عطف ربة الكوخ الجديد عليه وعلى شقيقته ما ألهج لسانه بالثناء عليها والتحدث بفضلها حتى آخر حياته !

نبوءة عجيبة

ووقعت فى يده بعد ذلك نسخة من كتاب «حياة وشنطن» زعيم الثورة الأمريكية ، فاستأثرت باعجابه قصة تلك الثورة وما قام به ذلك الزعيم العظيم من اعمال خالدة ، وبدأت الأمانى الكبار والأحلام الذهبية بالمستقبل المجيد تثير خياله ، وتملك عليه تفكيره . وحدث يوما أن عنفته جارة للأسرة على أثر مشاجرة بينه وبين ولدها ، فقالت له ساخرة :

ـ ماذا تظن أن ستكون فى المستقبل ؟

فما كان جوابه الا أن قال لها على الفور : « أظن أنى سأكون رئيسا للولايات المتحدة ! »

وقد اكسبته اعماله اليدوية قوة بدنية كبيرة ، ولكنه لم يكتف بذلك فكان يخصص جانبا من أوقات فراغه القليلة لممارسة الألعاب الرياضية ، حتى صار من البارعين المعدودين فى القفز والمصارعة وغيرهما !

دراسته للقانون

وحينما بلغ الثامنة عشرة من عمره سنة ١٨٢٧ ، وجد لنفسه عملا آخر ، بدا له فى أول الأمر أسهل وأحسن ، وكان هذا العمل الجديد هو القيام بمهمة البيع فى متجر بالقرب من القرية ، ولكنه ما لبث قليلا حتى ضاق به فتركه غير آسف

عليه . على ان الفترة التى امضاها فى ذلك العمل افادته من جهة اخرى ، اذ قرأ خلالهـا كتاب « القوانين المعدلة لولاية انديانا» فاتجه منذ ذلك الحين الى دراسة القانون،وحرص فى الأشهر التالية علي قضاء الأيام التى يخلو فيها من العمل فى التوجه الى المحكمة التى كانت تعقد على مسافة خمسة عشر ميلا من القرية. فكان يقضى هناك أكثر النهار فى تتبع القضايا المعروضة،والاستماع لما يدور فيها من المرافعات والمناقشات!

ومن طريف ما يذكر ، انه استمع هناك يوما لمرافعة بليغة من المحامى « جون بريكنردج » فأعجب بأسلوبه ، وما كاد الحكم يصدر ببراءة موكله المتهم بالقتل ، حتى اندفع من بين جموع النظارة ومد اليه يده يريد مصافحته وتهنئته ، ولكن ذلك المحامى المشهور لم يلتفت اليه ، وانصرف غير عابىء بالفتى الريفى الفقير المتحمس له !

وفى السنة التالية ، أتيح للفتى وقد بلغ التاسعة عشرة من عمره أن يغادر قريته لأول مرة الى مدينة « أورليان » اذ استأجره صاحب سفينة ذاهبة اليها لحراسة ما بها من بضاعة ، فى مقابل دولارين فى الاسبوع عدا الطعام . وقد كان لهذه الرحلة اعمق الأثر فى نفس « ابراهام لنكولن » الفلاح الأجير الفقير الطموح ، ففى خلالها وقف بنفسه على الوان الحياة التى يحياها كبراء المدن واثرياؤها ، وشاهد للمرة الاولى اسواق الرقيق حيث يساق بعض الناس فى السلاسل والأغلال ، وينتقلون بالبيع والشراء من سيد الى سيد ، يفعل بهم ما يشاء،دون أن يكون لهم اى حق فى الرفض او المعارضة وهكذا نبتت فى ذهنه فكرته السامية الخالدة التى وقف حياته على الدعاية لها وتنفيذها .. فكرة تحرير العبيد !

عودته اجيرا بالمزارع والمتاجر

لم تطل بعدئذ اقامة اسرة لنكولن بمحلة « جنتزفيل » اكثر من سنتين ، فقد رأى « ابراهام » ان ينتقل بالأسرة

الى ولاية « الينوى » . وحملتهم جميعا الى هناك عربة ريفية كبيرة يجرها اربعة ثيران ! قضت أياما وليالى فى سفر شاق رهيب !

وما حطت الأسرة رحالها فى موطنها الجديد حتى اخذ « ابراهام » فى اقامة كوخ لها من جذوع الشجر ، ومن هذه الجذوع نفسها اقام سياجا حول قطعة من الأرض البكر ، ثم بدأ يستصلحها للزراعة ، ويلقن اخوته من ابيه خير الوسائل لبلوغ هذه الغاية. ولما اطمأن الى قيامهم بزراعة الأرض استأنف العمل أجيرا فى المزارع المجاورة ، مخصصا الجانب الأكبر من أجره لمساعدة الأسرة ، بل كثيرا ما كان يختصها بكل ما يحصل عليه من أجر عمله اليومى العادى ، ثم يقوم بأعمال اضافية مجهدة لكى يحصل على ما ينفقه فى شئونه الخاصة كشراء الملابس والكتب وما اليها . وقد اضطر لكى يحصل على سراويل جديدة فى تلك الأيام الى ان يقوم فى أوقات فراغه بقطع ما يزيد على ألف غصن من أغصان الأشجار !

وعلى هذا النحو، قضى أكثر من عام ، ثم اتفق معه صاحب مطحن بالمنطقة على أن يتولى انشاء سفينة نقل لحسابه ، ثم الاشراف على أول رحلة لها الى مدينة « أورليان » . فقام « ابراهام » بهاتين المهمتين خير قيام ، وبلغ من اعجاب صاحب المطحن بخبرته ونشاطه وأمانته أن عينه مديرا لمتجر يملكه فى « نيوسالم »

زواجه واشتغاله بالمحاماة

فى ذلك الحين ، كانت ثورة الهنود الحمر قد بلغت أشدها بزعامة « الصقر الأسود » رئيس قبائل « الساكس » . ولم يجد حاكم الولاية بدا من اعلان الحرب على أولئك الثائرين وفتح باب التطوع للاشتراك فيها . فأجمع المتطوعون من أهل « نيو سالم » على اختيار « ابراهام » قائدا وزعيما

ومرشدا لهم. وكان هو عند حسن الظن به من أولئك المواطنين المتطوعين ، فقاد كتيبتهم من نصر الى نصر ، وكانت خططه الحكيمة موضع تقدير الجميع . فلما انتهت الحملة وعادوا لبلدتهم ، ثم بدات الانتخابات العامة للمجلس التشريعي ، أبوا الا أن يرشحوه لعضوية المجلس ، وكان عدد الناخبين منهم ٢٨٠ فانتخبه من بينهم ٢٧٧

وكان رئيس المساحة بالمنطقة فى حاجة الى مساعد فعرض هذه الوظيفة على « ابراهام » واعطاه كتابا فى المساحة ليدرسه ، فحفظه عن ظهر قلب فى ستة اسابيع !

على انه كان قد وطد عزمه على الاشتغال بالمحاماة، فعكف على دراسة كل ما تصل اليه يده من كتب القوانين، واتفق فى ذلك الحين ان انقطعت اخبار خطيب الآنسة « آن » ابنة المستر « رتليج » صديقه الذى أسكنه بمنزله ، وكان هذا الخطيب قد سافر الى « نيويورك » لقضاء مصلحة له فيها بعد أن حدد موعد الزفاف ، ثم أرسل من هناك خطابين ؛ ضمن احدهما نبأ مرض ابيه ، ونعاه فى الخطاب الثانى ؛ ثم لم يعد احد يعرف عنه شيئا بعد ذلك ، الى ان فات موعد الزفاف . وقد شعر « ابراهام » بالعطف على الفتاة الحسناء ابنة صديقه ، وما لبث هذا العطف أن تحول الى حب قوى ، جعله يطلب يدها لنفسه ، فرحب والدها بذلك . ولم تكن « آن » اقل رغبة فى قبول الخطيب الجديد ، ولكنها تمنعت أول الأمر محتجة بان خطيبها الأول قد يعود فجاة بعد قليل فلما انقضى عام على انقطاع اخباره ، لم تجد بدا من اعلان موافقتها على الزواج بابراهام ، ثم كانت له نعم الخطيبة الوفية الملهمة. وسرعان ما اتم دراسة القانون واستوعب كل المؤلفات فيه ، ثم أسعده الحظ فى الانتخابات النيابية التالية ، فانتخب عضوا فى المجلس التشريعي عن الولاية

مكافحته لتجارة الرقيق

شهدت سنة ١٨٤٦ نصرا جديدا لابراهام لنكولن المحامى القدير ، فقد فاز فى انتخابات « الكونجرس » فوزا منقطع النظير ، وطارت شهرته فى السنين الأربع التاليات بوصفه نائبا جريئا عقد له لواء الزعامة فى معارضة اعلان الحرب على المكسيك ، وفى مكافحة تجارة الرقيق

ولكن جهاده وانتصاره فى سبيل تحرير العبيد لم يلق ما يستحقه من النجاح الكامل المنشود ، فانتهى الأمر فى سنة ١٨٥٠ بموافقة المجلس على تسوية غير كاملة ، وذلك بالغاء الرق فى كاليفورنيا وكولومبيا ، مع ابقاء الحق لصاحب العبد الآبق فى اعتقاله واعادته للرق والعبودية عنده حتى اذا كان فى ولاية تحرم تجارة الرقيق !

انتخابه رئيسا للولايات

وفى مايو سنة ١٨٦٠ دعى الى مؤتمر الحزب الجمهورى فى «سبرنجفيلد» وكانت الحماسة فى استقباله بحيث لم يستطع بلوغ المنصة الا بشق النفس ، ثم لم تمض على ذلك عشرة أيام حتى أعلن فوزه فى ترشيحات المؤتمر الوطنى بشيكاغو ضد « وليام سيوارد » ممثل نيويورك فى ذلك الحين . وترقب الجميع نتيجة المعركة القادمة لانتخابات رياسة الجمهورية بين « لنكولن » و « دوجلاس » بصبر نافد ، وما أعلن فوز « لنكولن » على خصمه العتيد حتى عمت البلاد موجة من الاضطرابات انتهت باعلان العصيان فى الولايات الجنوبية

وقد حرص « لنكولن » عند رحيله من « سبرنجفيلد » الى « وشنطن » على ابقاء أسمه على لوحة مكتب المحاماة . وكان أشد ما يكربه أن الخزانة العامة خاوية ، وأن الحرب الأهلية توشك أن تشب بسبب تمرد الولايات الجنوبية ، فأعلن فى خطبة افتتاح المجلس النيابى أن الحكومة لن تهاجم

المتمردين فى الجنوب الا اذا بداوا مهاجمتها ، ثم اخذ يكرر الدعوة الى الاتحاد . ولكن الولايات الجنوبية لم تلبث ان هاجمت قلعة « فورت سومتر » فى ابريل سنة ١٨٦١ فبدأ القتال بين الفريقين من ذلك الحين ، وبقى الصراع يشتد ، وتزداد الخسـائر ، فى الارواح والأموال . وكانت انجلترا تساعد الجنوبيين ضد الحكومة فى الشمال حرصا منها على مصالحها الخاصة عندهم . وكان « ويلى » ابن الرئيس لنكولن احد الضحايا العديدين فى تلك الحرب الضروس ، فكانت فجيعته فيـه عظيمة ، لكنه بقى بعدها يعلن عطفه الشديد على المقاتلين جميعا من الشماليين والجنوبيين على السواء ، لأن هؤلاء وهؤلاء مواطنوه !

وفى سبتمبر سنة ١٨٦٢ ، اصدر « لنكولن » بيانه الخالد الذى ضمنه قرار تحرير اربعة ملايين من الرقيق ، وما اقبل العام التالى حتى اشتد أوار القتال بين الفريقين ، ووقف « لنكولن » يخطب الناس قائلا : « ان هذه الأمة ستشهد مولدا جديدا لحريتها ، وستكون حكومتها حكومة الشعب ؛ وستبقى خالدة ابد الدهر »

وفى العام التالى،احرزت جيوش الشمال انتصارات كبيرة، واعيد انتخاب « لنكولن » رئيسا للجمهورية ، فاعلن فى خطبة افتتاح البرلمان ان الحرب الأهلية يجب ان تنتهى عاجلا ، لكى تبدا البلاد عهدا جديدا سعيدا من السلام والعدل والرخاء وحسن العلاقات بالشعوب الاخرى

وفى التاسع من ابريل سنة ١٨٦٥ تحققت آمال لنكولن العظيم ، فانتهت تلك الحرب ، وعادت الى الأمة الأمريكية وحدتها ، وزالت معرة الرق عن جبينها

بنيامين فرانكلين

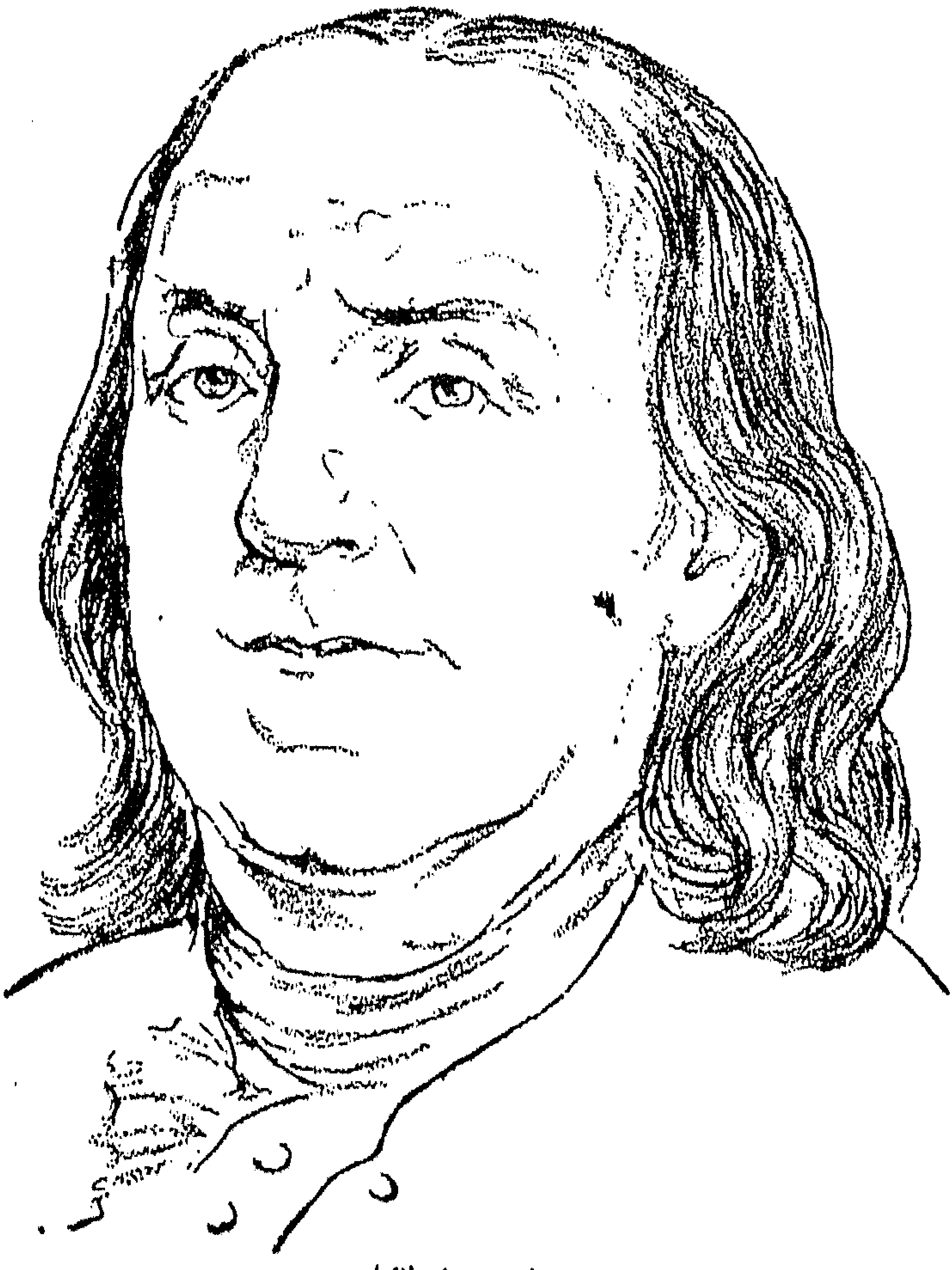

بنيامين فرانكلن

اتخذ لنفسه منذ صباه شعارا هو « ان يعمل ويتعلم » وكثيرا ما آثر ان يبيت طاويا ليشترى كتابا جـديدا يقرؤه بدلا من طعـام العشـاء

الناشر العبقرى

ولد فى ٢٧ يناير سنة ١٧٠٦ بمدينة « بوسطن » . وكان الابن الخامس عشر من سبعة عشر ولدا رزق بهم أبوه « يوشيا فرانكلين » العامل فى صناعة الشمع والصابون ، فكان طبيعيا حين بلغ العاشرة من عمره أن اكتفى والده بتعليمه القراءة والكتابة وألحقه بأحد المصانع ليتدرب فيه على عمل يعيش منه . ولكن الصبى بنيامين كان أكثر طموحا وأملا فى المستقبل فلم يرض لنفسه أن يكون نجارا أو جدادا أو بناء أو صانع أحذية كما أراد له والده ، واقترحت أمه اعداده ليكون قسيسا ، فرضى بذلك حينا ، ثم عزف عن دراسة الدين

عامل فى مطبعة

وحاول أبوه أن يدربه على العمل معه فى صنع الشمع ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح أيضا ، وسرعان ما شعر الوالد بأن ابنه الصغير يحاول الهرب من المنزل كما صنع اخوته من قبل ، فأعفاه من العمل معه ، وأجابه الى رغبته فى تعلم فن الطباعة . وكان ابنه الاكبر « جيمس » قد سبق الى تعلم هذا الفن الجديد وأنشأ لنفسه مطبعة صغيرة ، فألحقه بالعمل فيها ، وتعهد «جيمس» بأن يجعل من أخيه طابعا ممتازا فى خلال تسع سنين !

وكان هذا العمل الجديد شاقا مضنيا للصبى الصغير ، وزاد فى مشقته أن « جيمس » كان حاد الطبع ، شديد

الوطأة ، لا يكتفى بتدريبـــه على صف الحروف وادارة آلة الطبـــاعة ، وتفهيمه دقائق الصناعة وأسرارها ، بل يكلفه فوق ذلك كله كثيرا من الاعمـال المرهقة داخـــل المطبعة وخارجها ، ولا يتورع عن ضربه بقسوة اذا لاحظ عليه أى اهمال أو ملال • على أن « بنيامين » لم يبد برغم ذلك تأففا أو تبرما ، بل مضى قدما فى الطريق التى اختارها لنفسه ، ولم يكتف بما لقى من ترقية جزاء مثابرته ودقته وخبرته ، فصار يقضى أمسياته فى المطالعة للتزود بما يحتاج اليه من مختلف العلوم والفنون والآداب• وساعده ذكاؤه وطموحه، فلم يمض الا قليل حتى أحس فى نفسه قدرة على الكتابةفى الموضوعات التى كانت تنشر فى الصحف الثلاث التىكانت تصدر فى أمريكا حينذاك ، وفى مقدمتها صحيفة « بريد انجلترا » التى يصدرها ويشرف على تحريرها أخوه • على أنه خشى ألا يشجعه أخوه على المضى فى هذا الطريق خشية أن يلهيه عن الطباعة ، فكتب أول مقال له ولم يوقع عليه ، ثم وضعه خفية فى مكتب أخيه ، فلما قرأه هذا أعجب به ونشره فى صحيفته وهو يحسب أنه لكاتب كبير !

رحلات لطلب الرزق

ولم تقف همة الطابع الشاب عند حد اجادة الكتـــابة النثرية ، فحاول قرض الشعر أيضا ، وأصـــاب فى ذلك نجاحا غير قليل • ثم اتفق أن علم أبوه باتجاهه الى الكتابة، فسارع اليه غاضبا ناصحا له بالعدول عن هـــذا الاتجاه • وفى الوقت نفسهأخذ أخوه يزداد شدة فى معاملته له ، فلم يجد بدا من النجاة بنفسه من العناء الذى يقاسيه ، وغادر المطبعة فى ذات ليلة الى غير رجعة ، اذ ترك المدينـــة كلها وتوجه الى « نيويورك » ليبحث عن عمل يعيش منه هناك !

لم تطل اقامة « بنيامين » فى نيـــويورك ، فقد رفضت مطبعتها الوحيدةالحاقه بعمل فيها فواصل رحلته قاصدا الى

« فيلادلفيا » .. وكان عليه أن يقطع أكثر الطريق اليها ماشيا ، اذ فرغ ما كان معه من مال قليل . وهكذا لقي من المشقة والعناء ما لا طاقة به لصبي في مثل سنه ، وقبض عليه غير مرة في الطريق باعتباره خادما هاربا ، واجتمعت عليه آلام التعب والجوع وخيبة الرجاء .. ثم أتيح له أخيرا أن يجد سفينة صغيرة متجهة الى فيلادلفيا ، ورضي بحارتها باصطحابه معهم في مقابل قيامه بالعمل فيها بقية الرحلة!

جوع .. وجمال

وفي فيلادلفيا ، كانت الصعاب والعقبات التي لقيها الصبي الهارب أدهى وأمر ، وقد بقي يذكر يومه الاول فيها حتى آخر حياته . فقد دخلها وحيدا شريدا مهلهل الثياب ، لا يكاد يقوى على المشي من فرط التعب والجوع ، ولم يكن يملك أكثر من ثلاثة بنسات ، فاشترى بها ثلاثة أرغفة من أول خباز صادفه ، ثم سار على غير هدى في طرقات المدينة وهو يقضم في شراهة أحد الارغفة الثلاثة بينما الرغيفان الآخران تحت ابطه .. وهناك على باب أحد المنازل التي مر عليها يومذاك وقعت عيناه الزائغتان على فتاة حسناء وقفت تبتسم وهي في دهشة من منظره ، فلم يزد على أن ابتسم بدوره ، ثم انطلق في سبيله مواصلا التغلب على جوعه بقضم الرغيف ... وبعد سبع سنين على ذلك المشهد الطريف .. شاءت الاقدار الا أن تجمع بين ذلك الفتى الشريد وبين تلك الفتاة الحسناء « ديبورا رير » فاذا هما زوجان متحابان سعيدان ، يتبادلان التقدير والاخلاص

يعمل ويتعلم

اتخذ بنيامين فرانكلين شعارا لنفسه منذ وصل الى فيلادلفيا ، هو أن يعمل ويتعلم .. وكثيرا ما آثر أن يبيت طاويا ، ليشتري كتابا جديدا يقرؤه بدلا من طعام العشاء!

وما بلغ العشرين من عمـــره حتى بدأ الخطوة الاولى فى سبيل نجاحه العظيم ، فصار صـــاحب « مجلة فيلادلفيا » واستطاع أن يجعل لها مكانا بارزا بين الصحف التى كانت تصدر بأمريكا فى ذلك الحين ، بما أدخل على تحريرها من تحسينات ومبتكرات. وسرعان ما اشتد اقبال القراء عليها، لما وجدوا فيها من مقالات بليغة تعالج الموضوعات التى تتصل بحياتهم ، وتنشر من الانباء ما يثير اهتمامهم ، بجـــانب ما ابتدعته من نشر الاعلانات المختلفة مما عد حدثا جـديدا

وشجع هذا صاحب المجلة الشاب ، فاخذ يستغل خبرته بالطباعة والصحافة فى اخراج نشرات وكراسات مطبوعة كانت النواة الاولى للكتب المطبوعة فيما بعد .. وفى تلك النشرات والكراسات كان عشاق الحرية من الامريكيين فى عصر الاستعمار يجـدون ما يشفى غليلهم ويشبع رغبتهم ويقوى آمالهم من المقالات الجامعة المعـالجة لمختلف الشئون السياسية والاجتماعية .. وكانوا الى ذلك يحصلون عـلى هذه النشرات بثمن مقبول

وما كاد يطمئن الى نجـــاح مشروعاته فى دار الطبـــع والصحـــافة والنشر ، حتى ترك الاشراف الادارى عليها لشريك يثق به ، واكتفى هو بالادارة الفنيـــة ، لكى يقوم بجانب عمله فيها باشباع رغبته فى البحث والدرس وابتكار ما ينفع المواطنين

نواة المكتبات العامة

واستطاع أن يعلم نفسه اللغة الفرنسية ثم الايطاليـــة والاسبانية واللاتينية .. وقرأ روائع الأدب العالمى ، وألم بجميع العلوم المعروفة فى عصره ، كما أتقن العزف عـــلى الكمنجة وغيرها من الآلات الوترية ، وبرع فى لعبة الشطرنج .. وصار من أساطين المحدثين

وبدأ مبتكراته العامة لخدمة مواطنيه، فانشأ مع بعض زملائه

ناديا يتبادلون فيه الكتب والآراء ، اسمه « نادى الجنتو » أو « الفوطة البيضاء » . وكان المبدأ الذى وضعه لتبادل الكتب بين الاعضاء نواة لانشاء المكتبات العامة التى كانت ولا تزال من أهم الوسائل لتثقيف الشعوب !

نظام حديث للبوليس

وأنشأ بعد ذلك اتحادا أهليا لمكافحة الحريق ، وشركة للتأمين ضده ، واقترح على المسئولين عن حفظ الامن نظاما جديدا كان نواة النظام الحديث للبوليس . ثم أنشأ جمعية لدراسة العلوم ، ودعا الى انشاء مدرسة عالية هى التى صارت فيما بعد « جامعة بنسلفانيا » . كما كانت له اليد الطولى فى انشاء المستشفيات العامة لاول مرة فى العالم

وفى سنة ١٧٣٧ تولى فرانكلين ادارة البريد فى فيلادلفيا، ثم عين مديرا عاما للبريد فى جميع المستعمرات التى كانت تتألف منها أمريكا ، فنقل هذا المرفق الهام من الحالة البدائية التى كان عليها الى العمل طبقا لنظام دقيق جعله أسرع وأنفع ، وفى الوقت نفسه ابتدع فكرة طوابع البريد، ثم نفذها فغطى ايرادها جميع نفقات البريد !

فى الزراعة والصناعة

ويعد فرانكلين فى أوائل رواد البحث العلمى فى الزراعة والصناعة ، وقد نجح بالوسائل العلمية التى استحدثها فى اصلاح قطعة كان يملكها من الارض البور فصارت تنتج أجود الحاصلات ، ووضع بحثا عن حياة النحل ضمنه كثيرا من الملاحظات الدقيقة والبيانات الوافية ، واستطاع أن يستنبط الكهرباء بوسيلة علمية بسيطة لم تزد على طائرة حريرية وحبل من قنب ومفتاح من حديد

وكان طبيعيا أن تتجه همة فرانكلين الى ميدان الاصلاح السياسي ، واليه يعزى الفضـل الاول فى وضع أول خطة مشتركة لتوحيد صفوف الامريكيين وضمهم فى اتحاد عام، وحينما اشتد الخلاف بينهم وبين انجلترا حـول رغبتهم فى التخلص من استعمارها،لم يجدوا من هو أصلح منه للتحدث باسمهم والدفاع عن مطالبهم ، فأوفدوه الى انجلترا لهـذا الغرض ، حيث مكث فيها عشر سنين ، واصل خلالها العمل لانجاز مهمته، ثم عاد الى فيلادلفيا،ليشترك مع قومه فى الجهاد استخلاصها بالحجج والبراهين ، وعلى أثر عودته عين عضوا فى المؤتمر الوطنى الثانى ، وأسندت اليه مهمة المعاونة على تنظيم الجيش والبحرية وتدبير المـال اللازم لبدء الجهاد ٠ وكان يومئذ قد بلغ التاسعة والستين من عمره ، لكنه تقبل هذه المهمة الشاقة بارتياح ، وأبدى فى سبيل انجازها همة عالية يحسده عليها أقوى الشبان ، وكان له أكبر الفضـل فى حمل جماعة الكويكر على الاكتتاب فى الجهاد !

ولا شك فى أن الاعبـاء التي ألقيت على كاهله فى تلك السن المتقدمة والظروف العصيبة قد خفت كثيرا بعد أن عين « جورج وشنطون » صديقه الحميم قائدا للجيش ، وكان هذا يصغره بستة وعشرين عاما ، وكل منهما مؤمن بصاحبه ، ويضع كل ثقته فيه

وحينما ألفت لجنة اعداد الوثيقة الخاصة باعلان الاستقلال، اختير فرانكلين لعضويتها ، وكان له نصيب كبير فى تحرير هذه الوثيقة التاريخية الخطيرة ، ووقع عليها معه : توماس جيفرسون ، وجون ادامز ، وروجر شـيرمان ، وروبرت لبفنجستون ٠ ثم عرضت على نواب الأمة فوقعوا عليهـا جميعا ، بعد أن ألهب فرانكلين حماستهم بقوله لهم :

ـ اسمعوا أيها السادة ٠٠ يجب أن يتعلق بعضنا ببعض حتى لا يعلق كل منا على حدة فى حبال المشنقة !

الشقيقان مايو

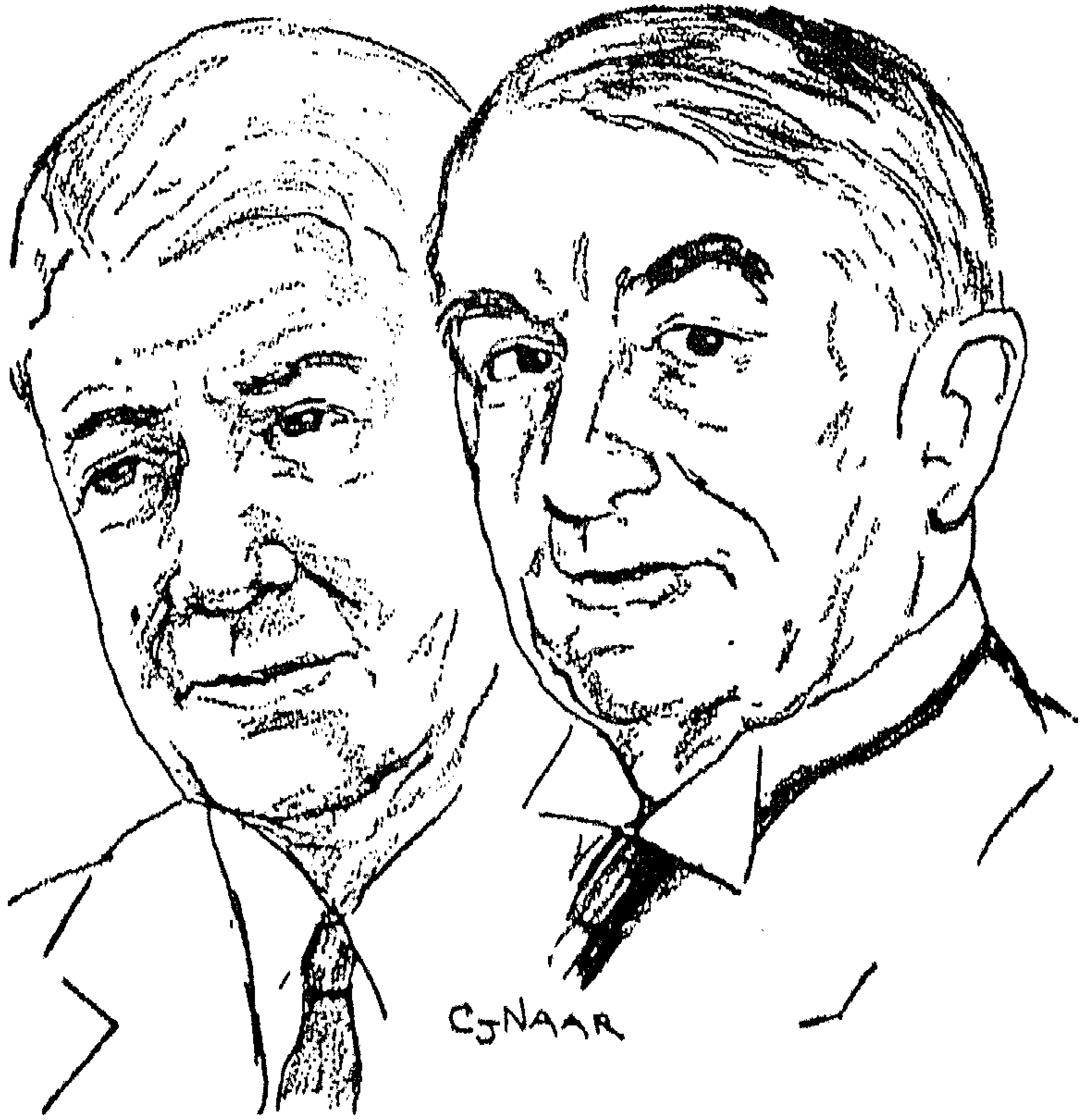

الاخوان مايو

كان لنجاحهما الباهر فى كثير من الجراحات المبتكرة المعقدة صدى عميق فى نفوس كثيرين ، حتى لقد راجت عن نجاحهما حكايات كثيرة اشبه بالاساطير

أبو الطب الأمريكى

فى سنة ١٨٤٥ ، هبط أمريكا مهاجر شـاب ، يختلف كثيرا من حيث الثقافة والهدف عن المهاجرين الذين كانوا يتدفقون عليها من جميع الانحاء فى ذلك الحين ، سعيا وراء العمل والثراء

كان هذا الفتى ـ واسمه « ويليام دبرال مايو » ـ طبيبا انجليزيا ، أتم دراسته ومرانه فى أكبر المستشفيات بلندن وجلاسجو ومانشستر ، واكتسب خبرة ممتازة فى الكيمياء من عمله سنوات مع الكيميائىالكبير « جون والتون » ٠ فلم تكن هجرته الى العالم الجديد للبحث عن عمل ، كما أنها لم تكن عن طمع فى الغنى أو الشهرة ، اذ دلتاريخ حياته فيما بعد على أنه من أشد الناس زهدا فيهما ، وانما هاجر من انجلترا ضيقا وتبرما بازدحامهـــا الذى لا يتفق مع ما فى فطرته من حب العزلة والهدوء ، وسخطا على ماكان يسودها من استعلاء بعض الطبقات على بعض ، الامر الذى لم يكن ينسجم مع تواضعه الجم ورقة طبعه ودماثة خلقه وبغضـــه الشديد للكبرياء والمتكبرين !

وشاءالقدر أن يستقر المقام بالطبيب الشاب فىالولايات الغربية ، وهى يومئذ لا تعرف من الاطباء غير جماعات من الدجالين الذين لا علم لهم ولا خبرة ، وانما كل همهم أن يغرروا بجماهير المرضى البســطاء لكى يبتزوا أموالهم ، ويمتصوا دماءهم ، معتمدين على ما يقومون به لانفسهم من دعايات كاذبة جوفاء !٠ وعلى هذا لم يرض لنفسه أن يكون

زميلا لأمثال هؤلاء الدجالين ، وآثر أن يترك لهم ميدان الطب حرصا على كرامته التى يعتز بها ، وضنا بالمهنة التى يجلها ويقدسها على الهبوط بها الى الدرك الاسفل الذى يعملون فيه · وقضى زهاء ثلاث سنوات متنقلا بين أعمال أخرى في مدن تلك الولايات وقراها ، ثم انتهى به المطاف الى مدينة « لافييت » بولاية « انديانا » ·· حيث أنشأ مصنعا لحياكة الملابس ، واستطاع أن يحرز نجاحا كبيرا !

ومضت خمس سنوات،غلبه الحنين الى الطب فى نهايتها، فاذا به يضحي بمصنعه الناجح ، لكى يدخل جامعة « ميسورى » في سنة ١٨٥٣ حيث حصل منها على درجة طبية جديدة ، ثم يرحل ومعه زوجته الى مقاطعة «مينسوتا» فى الجانب الاقصى من الحدود الامريكية ، وهناك قضى بضعة أشهر فى الطواف بالقرى البدائية المنعزلة والقفار المحيطة بها ، لتفقد أحوال القبائل الهندية القاطنة هناك ، ودراسة عاداتها وتقاليدها وكل شيء في حياتها

وحينما نشبت الحرب الاهلية بعد ذلك ، عين الدكتور مايو جراحا فى الجيش الاتحادى ، وكان من نصيبه أن أقام طول فترة هذه الحرب بمدينة « روشستر » الصغيرة ، ثم حببت اليه الحياة بها بعد انتهاء الحرب ، فاعتزم الاقامة الدائمة بها ، وأنشأ لنفسه عيادة في منزل صغير بالشارع الثالث فيها ، كما سكن وزوجته فى المنزل نفسه ، وجعل من احدى غرف المنزل معملا يجرى فيه ما يعن له من تجارب وأبحاث

نجح الدكتور مايو نجاحا عظيما فى عيادته الخاصة ، وكان لمعرفته السابقة بأهل المنطقة وحسن معاملته اياهم أثر كبير فى هذا النجاح · على أن الجانب الاكبر من نجاحه يرجع ولا شك الى عاملين مهمين آخرين : احدهما اخلاصه وتفانيه في حب مهنته ، والآخر حبه لأهل تلك المنطقة

ورغبته الصادقة القوية فى خدمتهم بخاصة وخدمة الامريكيين مواطنيه الجدد بعامة !

وهكذا قسم الطبيب الشاب وقته بين العمل فى عيادته ومعمله وبين المشاركة فى النشاط الاجتماعى والسياسى فى المنطقة والولاية كلها ، ولم يكف مع هذا كله عن الاستزادة من معلوماته ، بالمطالعة المنظمة، والقيام برحلات استطلاعية فى المناطق المجاورة ، وفى الولايات الشرقية للمدارسة والمباحثة مع كبار الاطباء فيها

ولم يمض قليل حتى لمع اسمه وبرزت شخصيته وصار موضع الحب والاجلال من الجميع ، ولاسيما بعد أن تعددت الخدمات العامة التى قدمها للأهلين ، كابتكاره نظاما للصحة العامة فى المدينة ، وسعيه فى سبيل انشاء مكتبة عامة بها ، وفى سبيل توسيع مدرستها، فضلا عن دعوته كثيرين من العلماء والاطباء الذين عرفهم فى الولايات الشرقية وغيرها الى زيارة المدينة والقاء محاضرات عامة بها

وقد رزق بولدين : أولهما « وليم » الذى ولد فى سنة ١٨٦١ ، والثانى « شارلى » الذى ولد فى سنة ١٨٦٥ ، وكان طبيعيا أن نشأ ولداه على حب مهنة الطب ، والرغبة فى أن يكونا طبيبين مثله • ولم يدخر هو جهدا فى تقوية هذه الرغبة وتنميتها ، فكان يصطحبهما منذ طفولتهما الى عيادته ، والى جولاته فى المزارع القريبة حيث يشاهدان فى اغتباط ما يقوم به من الفحص والعلاج • وما كادا يشبان عن الطوق حتى كان كل منهما يعرف الكثير من أسرار المهنة، ويعرف جميع الاجهزة والادوات التى يستعملها أبوه فى العيادة والمعمل • لكثرة ما شاهداها ، وساعدا والدهما فى استعماله اياها !

وواصل الطبيب العالم جهوده الطيبة فى سبيل اعداد ولديه ومعاونتهما على التفوق فى دراساتهما الجامعية والشخصية ، وما تخرجا فى سنة ١٨٨٣ حتى عادا الى

« روشستر » حيث استأنفا العمل مع والدهما، لا مساعدين في هذه المرة بل طبيبين أصيلين ، وسرعان ما أحرزا ثقة الأهلين

كانت سنة ١٨٨٣ بداية تحول فى تاريخ آل مايو ، ففى هذه السنة التى بدأ فيها العمل المشترك للاطباء الثلاثة ، الوالد وولديه ، هبت عاصفة شديدة فى اليوم الحادى والعشرين من شهر اغسطس ، أتت فى دقائق معدودات على جانب كبير من المدينة الصغيرة التى يعملون فيها ، وكان ضحايا هذه الكارثة كثيرين جدا ، فشمر الاطباء الثلاثة عن سواعدهم وأخذوا يواصلون العمل لاسعاف الجرحى وعلاجهم فى مستشفى مؤقت اتخذوه لذلك في قاعة للرقص بأحد المنازل التى تشملها كارثة العاصفة الهوجاء • وواجهتهم مشكلة كبرى هى مشكلة تمريض ذلك العدد الكبير من المصابين • ولكنهم سرعان ما تغلبوا على هذه المشكلة اذ استطاعوا اقناع رئيسة دير القديس فرنسيس ، القائم على مقربة من المدينة ، بأن تمدهم بطائفة من راهبات الدير ، ليقمن بمهمة التمريض !

ومضت أشهر ، والعمل يجرى بنجاح فى المستشفى المؤقت الذى أقامه آل مايو، ولم يكن اعجاب الناس بالتضامن التام بين الاطباء الثلاثة البروتستانيين وبين أولئك الممرضات من الراهبات الكاثوليكيات بأقل من اعجابهم بالهمة الصادقة التى بذلت فى المستشفى وكان لها كل الفضل فى تخفيف آثار النكبة القادحة التى نزلت بالمنطقة ، من جراء تلك العاصفة القاصفة !

وعرضت رئيسة الدير على آل مايو استعدادها للاشتراك معهم فى انشاء مستشفى دائم فى المدينة باسم القديسة مارى ، ليعالجوا فيه المرضى والجرحى من أهل المنطقة جميعا، بلا تفريق بين أديانهم وألوانهم وحالاتهم المالية، وتم الاتفاق على ذلك أخيرا ، واستغرق اعداد المستشفى الجديد سنوات،

تناوب الاطباء الثلاثة خلالها القيام برحلات لزيارة المعاهد والمستشفيات الكبيرة في الولايات الشرقية، للبحث والدرس واقتباس أحدث النظم وأحسنها

وبدأ العمل فى مستشفى القديسة مارى سنة ١٨٨٩ ، وأقبل المرضى عليه من أنحاء المنطقة وما يجاورها، ولم تمض سنتان حتى كان اسم « مايو » يتردد فى جميع أنحاء أمريكا مشفوعا بأكبر الاجلال والاعجاب ، وبدأ الاطباء أنفسهم فى الولايات الاخرى يبعثون الى المستشفى بالمرضى الذين يحارون فى تشخيص أمراضهم وعلاجها ، وهناك يجد هؤلاء المرضى من العناية والرعاية ، ما يلهج ألسنتهم بالدعاية الضخمة للمستشفى والقائمين بالعمل فيه !

وأخيرا ٠٠ رأى الدكتور وليام مايو أن ولديه النجيبين الشابين صارا جديرين بأن يستقلا بادارة المستشفى الناجح الكبير ، فتركه لهما ، وتفرغ للمهام السياسية والاجتماعية التى اضطلع بها بوصفه عضوا فى مجلس الشيوخ بالولاية، وبقى كذلك حتى اعتزل العمل فى المجلس فى الرابعة والسبعين من عمره

وكان أول ما صنعه الطبيبان الشقيقان بعد استقلالهما بادارة المستشفى ، أن قررا تزويده بكل ما من شأنه أن يدعمه ويوسع نطاق الخدمات التى يؤديها ، وعلى هذا الاساس المتين أخذا يضمان اليه كل نابه كفء من العلماء والاطباء والكيميائيين ، ويزودانه بكل مستحدث من الاجهزة والآلات والادوات !

وحرصا في الوقت نفسه على معاملة جميع المعاونين لهما أحسن المعاملة ، بل حرصا على أن يكون عمل هؤلاء فى المستشفى على أساس أنهم شركاء ٠ وكان الدكتور هنرى

بالمر فى مقدمة العلماء الاكفاء الذين انضموا الى المستشفى، فما لبث قليلا حتى جعل من معامله أكبر مؤسسات علمية من نوعها ، وصار فى إستطاعتها أن تقدم مساعدات فنية لا يمكن تقدير قيمتها لعدد كبير من الاطباء والباحثين. وعلى مر الوقت تحول المستشفى من بضع غرف فى الطابق الثانى من بناء المعهد الماسونى بالمدينة ، الى بناء مجمع ضخم يشغل مساحة كبيرة جدا ، والى جواره عشرات من الملحقات المنشاة على أحدث طراز، بين مصحات لايواء المرضى ، وأخرى للعناية بالناقهين ، ومؤسسات للاستشفاء ، وفنادق مختلفة لاقامة من شاء من النزلاء

لم يكن النجاح العظيم الذى أحرزه الشقيقان مايو ليقعد بهما عن مواصلة الدرس والبحث،وقد زودهما ذلك بأصدقاء كثيرين من العلماء والاطباء فى مختلف أنحاء أمريكا ، كما بقيت صلاتهما وثيقة بكبار الاطباء الذين عرفوهما بالولايات الشرقية في مستهل حياتهما العملية ، كالدكتور برايس فى فيلادلفيا، والدكتور هلستيد طبيب مؤسسة جون هوبكنس، وغيرهما من كبار الاطباء فى نيويورك وبوسطن

وكان لنجاحهما الباهر فى كثير من الجراحات المبتكرة المعقدة صدى عميق فى نفوس الامريكيين جميعا ، حتى لقد راجت عن نجاحهما هذا حكايات كثيرة أشبه بالاساطير ، وحدث يوما أن أرسل الدكتور « ول » الى صحيفة طبية فى احدى الولايات الشرقية بحثا ضمنه طريقة ابتكرها لعلاج المرارة بالجراحة ، وكانت هذه الجراحة من التعقيد بحيث لم يصدق نجاحها رئيس تحرير الصحيفة ، فلم ينشر البحث الخاص بها ، وأعاده الى صاحبه بالبريد !

جیمس وات

جيمس وات

واصل جهاده صابرا على التعب والمرض والفقر حتى اصبح لعظمته وعبقريته العلمية العالمية يعد أعجب رجل انجبته انجلترا ...

مخترع أول آلة بخارية

هناك فى مدينة « جرينوك » الصـغيرة باسكتلندة ، ولد « جيمس وات » فى ١٩ يناير سـنة ١٧٣٦ ، وكان والداه الفقيران يختصانه بمزيد من حنانهما وعطفهما ، لأنه اضعف أولادهما جسما ، وأرقهم طبعا ، واوفرهم ذكاء . وحينما حال ضعف صحته دون الحاقه بالمدرسة كاخوته ، تكفلت والدته بتعليمه فى المنزل،فتلقى عليها مبادىء القراءة والكتابة والحساب ، ووجد منها خير تشجيع على ممارسة هوايتيه المفضلتين وهما : الرسم ، واصلاح الآلات والأدوات المنزلية !

ومنذ السادسة من عمره،بدا شغفه الشديد بكل ما يتصل بالعلم والمعرفة ، فكان يمضى الساعات الطوال كل يوم فى تأمل الأشكال الهندسية المختلفة ، محاولا رسمها بالطباشير الملون على جدار الموقد بالمنزل ،او تكوينها بواسطة القطع الخشبية الصغيرة . كما كان يطيل التأمل فى « غلاية الشاى » ومراقبة اثر البخار المتصاعد منها فى غطائها ، أو فى ملعقة أو نحوها ، يقربها من ذلك البخار . وفى الوقت نفسه كان ولوعا بقراءة القصص الخيالية والاستماع لها ، وروايتها لاخوته وأترابه بطريقة مشوقة جذابة ، تدل على موهبة ممتازة فى سـعة الخيال وقوة الذاكرة وعذوبة الحديث !

طالب ممتاز

ولم يكن عجيبا أن يبرز تفوقه على اقرانه الذين يتعلمون فى المدرسة،وما بلغ الرابعة عشرة من عمره حتى كانت ذاكرته العجيبة قـد وعت ما قرأه فى عشرات من الكتب العلميـة

المختلفة ، وفى مقدمتها كتاب فى فلسفة الطبيعة لم يكن يحسن فهمه من الكبار الا قليلون !.. وكان حريصا على تطبيق ما يتعلمه ، فأخذ لنفسه مصنعا خاصا بالمنزل،فصنع بعض ادواته وآلاته بنفسه ، ومن بينها آلة كهربائية كان يحلو له ان يداعب أصدقاءه الصغار بصدماتها،كما صنع آلات عديدة لرفع الأثقال ، ومضخات ، واصلح كثيرا من الآلات والأدوات المستعملة فى السفن ، وحصل على معلومات فلكية قيمة

يعمل ليعيش

راى « جيمس وات » حين بلغ الثامنة عشرة من عمره ان رقة حال اسرته توجب عليه الا يجشمها عناء اعالته ، فسافر الى «جلاسجو» ليتعلم هناك صناعة الآلات الرياضية، ووصل الى تلك المدينة وهو لا يملك غير ملابسه التى عليه ، وبعض أدوات النجارة التى حملها معه . وكان اغتباطه شديدا حين اتيح له الحصول على عمل يقوم بأوده ، فى مصنع صغير لاصلاح شباك الصيد والقيثارات والصفارات وما اليها !

وبعد ايام ، لقيه فى جلاسجو قائد بحرى سابق ، كان صديقا لأبويه ، فأشار عليه بالسفر الى لندن للبحث عن عمل اليق به واكبر اجرا ، فسارع الى العمل بهذه المشهورة . ومكث فى العاصمة البريطانية اياما شقية بائسة ، ثم وفق اخيرا الى الالتحاق بورشة ميكانيكية يواصل الكدح فيها منذ الصباح حتى العشاء

وما انتهت تلك السنة حتى كان « جيمس وات » قد حذق الميكانيكا وبرع فيها ، فعاد الى جلاسجو معتزما انشاء مصنع لنفسه بها،ولكن نقابة الصناع فى المدينة لم ترخص له فى انشاء المصنع المطلوب ، بحجة أنه لم يمض المدة المقررة للتعلم والتدرب !.. فكاد الياس يستولى عليه ، ثم رق له قلب أستاذ فى الجامعة فأفرد له حجرة بها يمارس فيها

صناعته المحببة ، ويجرى تجاربه لحسابه الخاص !

وصنع « جيمس وات » آلات كثيرة ، لها مزايا لا يستهان بها ، غير أن الاقبال عليها لم يكن كبيرا ، فاضطر لكى يعيش الى التحول عن صنع تلك الآلات الميكانيكية الى صنع الآلات الموسيقية واصلاحها،وفى سبيل ذلك درس نظريات الموسيقا وصناعة آلاتها المختلفة حتى اتقنها بعد أشهر معدودة ، ووفق الى صنع أرغن مبتكر نال كل الاعجاب ممن شاهدوه وجربوه !

دراسته لقوة البخار ..

وفى الثامنة والعشرين من عمره عرض عليه معمل الجامعة أن يقوم باصلاح مضخة بخارية لامتصاص المياه من مناجم الفحم ، هى نوع من الآلة الهوائية التى اخترعها « توماس نيوكومن » . فأتيحت له بذلك فرصة ثمينة لدراسة علمية عملية دقيقة ، وبدأ يفكر فى اختراع آلة تدور بقوة البخار !. وفى هذه السنة نفسها تزوج بالآنسة « مرجريت ميللر » فوجد من اخلاصها له واعجابها بعبقريته خير مشجع له على المضى فى تنفيذ ذلك الاختراع !

قضى « جيمس وات » بضعة اشهر يواصل العمل ليل نهار فى سبيل اختراع تلك الآلة الجديدة

وكانت العقبات التى تعترض سبيله كثيرة ، وفى مقدمتها فقره وقلة ما لديه من وسائل وأدوات لازمة لاجراء تجاربه المتعددة . وبرغم ذلك كله لم يجد اليأس الى نفسه سبيلا ، واخذ يستخدم الزجاجات العادية لحفظ البخار ، ويستخدم لنقله أنابيب القصب وما اليها ، ثم استأجر حجرة أخرى وشرع فى صنع الآلة المنشودة طبقا للنموذج الذى ابتكره

وفيما هو منهمك فى العمل ، فوجىء بعقبة جديدة ، هى موت مساعده الاول ، فى وقت شدة الحاجة اليه . وكانت الديون قد تراكمت عليه لانعدام كل انتاج آخر فى مصنعه ؛

وساءت حال اسرته الى حد كبير .. على انه تحامل على نفســه وواصل العمل بهمة لا تعرف الكلل حتى انتهى من صنع الآلة .. ولكنه ما كاد يشرع فى تجربتها حتى انهــارت صروح آماله كلها ، واســـفرت التجربة عن فشل تام ، لا لنقص فى الفكرة التى بنى عليها اختراعه الخطير ، ولكن لضعف الالات والأدوات التى استعملها فى اخراجه مضطرا

كاد الياس يقعده

وكاد الياس يغلبه ازاء تلك الصدمة القاسية،ولكن زوجته الوفية عرفت كيف تعيده سيرته الاولى من الهمة والطموح والأمل ، ولم يمض قليل حتى قبل الدكتور «جون رويبك» مؤسس مصانع حديد «كارون» أن يمد يد المساعدة للمخترع الشــاب الفقير ، فتولى تسـديد ديونه ، وكانت قد بلغت خمسـة آلاف دولار ، واشار عليه بالسفر الى لندن للحصول على براءة بحق اختراع الآلة الجديدة ، فحصل على هذه البراءة بعد جهد جهيد ، ثم عاد الى جلاسجو حيث شرع فى صنع الآلة من جديد

ومضت سنتان ، بذل خلالهما « جيمس وات » كل ما فى وسعه من قوة وحيلة لانجاز اختراعه ، وكانت العقبات التى اعترضت طريقه فى هذه المرة اشد وانكى ، فالمستر رويبك غرق فى الديون فلم يستطع الاستمرار فى مساعدته،وزوجته الحبيبة الوفية توفيت فجاة تاركة له ثلاثة أولاد لا معين لهم سواه ، لكنه مع هذا استمر فى جهاده ، صابرا على التعب والمرض والفقر ، الى ان انتهى من صنع الآلة سنة ١٧٧١ .. ثم كانت الصدمة الكبرى حين أسفرت تجربتها عن الفشل ايضا ، نتيجة لرداءة اسطوانتها ، ولأن القطع التى استطاع الحصول عليها لصنعها كان ينفذ منها الهواء والبخار ، ولم يفد فى علاجها سد خروقها بالفلين والخرق المشبعة بالزيت وكان احيانا لا يجد حتى هذه الخرق فيضطر الى سد تلك

الخروق بقطع ينتزعها من قبمته !
وكانت النتيجة لهذا الفشل الجديد ان عاد جيمس وات وهو فى الخـامسة والثلاثين من عمره الى البحث عن عمل آخر يعول به نفسه وأسرته ، فعمل مهندسا مدنيا

نجاحه فى اختراع الآلة البخارية

كان مستر « رويبك » ــ شريك « وات » السابق ــ قد حدث عنه صديقا له من كبار أقطاب الصناعة فى برمنجهام ، هو المستر « متى بولتن motea Roulton » صاحب احدى المؤسسات الكبرى لصـناعة الساعات والأدوات المعدنيـة والزهريات المقلدة . وكان هذا بدوره يدرس آلات البخار ويؤمن بمستقبلها الباهر ، فأخذ يفاوض « وات » للاتفاق معه على تنفيذ مشروعه فى مؤسسته ، على أن يعطيه ثلث ما يغله صنعها وبيعها من الأرباح

وكان طبيعيا أن وافق « وات » على هذا العرض ، ولكن مستر « بولتن » بقى ثلاث سـنوات بعد ذلك مترددا فى التنفيذ ، فعاش « وات » خلال هـذه السـنوات معلقا بين اليأس والرجاء ! ولقى من المتـاعب ما كان له أكبر الأثر فى ازدياد ضعف صحته ، على أنه سرعان ما تناسى ذلك كله حين بدأ تنفيذ الاتفاق ، وتم صنع الآلة الجديدة واسفرت تجربتها فى هذه المرة عن نجاح باهر ؟ ثم بدات الطلبـات تنهال على المؤسسة من جميع الأنحاء لشراء الآلة البخارية الجديدة !

وفى ذلك الحين ، تزوج « وات » للمرة الثانية ، وكانت زوجتـه الجـديدة « أنا ماك جريجور » ربة بيت ممتازة ، فاستطاعت أن تكفل له ولأولاده عيشة راضية

وازداد مستر « بولتن » تقـديرا لشريكه مخترع الآلة البخـارية الاولى واعجابا بعبقريتـه وخلقه ، حين رفض «وات» ما عرضته عليه الحكومة الروسية أن يعمل لحسابها، فى مقابل خمسة آلاف دولار ، وكان مثل هذا المبلغ يعد ثروة

كبيرة فى ذلك الحين !

بيد ان كثيرا من المؤسسات والمصانع بدات تنتج آلات بخارية رخيصة ، تغمر بها الأسواق ، مقلدة آلتهما المبتكرة . وعبثا حاول الشريكان منع ذلك التقليد !

وفى خلال هذه المتاعب والمضايقات ، كان « وات » يقضى الساعات الطوال كل يوم فى معمله بالمؤسسة عاكفا على تجاربه وابحاثه لاخراج مخترعات جديدة اخرى . وقد وفق فى ذلك الوقت الى صنع آلة للطباعة ولكن الاقبال عليها لم يكن كبيرا، لما شاع يومئذ من ان استعمالها قد يؤدى الى انتشار التزوير!

آلة لطحن الدقيق

وفى ذلك الوقت ايضا ، اخذ « بولتن » يلح عليه فى صنع آلة بخارية لطحن الدقيق ، وقد تم صنع هذه الآلة على يد « وليام ماردوك » رئيس عمال المؤسسة ، وكان مخترعا ذا مواهب عظيمة ، نشر فوائد الاضاءة بالغاز ، وصنع أول نموذج للقاطرة ، وابتكر استعمال جلد السمك لصنع الفراء بدلا من الباغة . وقد حصل الشريكان « بولتن » و «وات» على حق انتاج هذه الآلة الجديدة ، وكلفهما صنعها ما يزيد على مائتى الف دولار ، وكان رواجها عظيما بعد ان جاهدا فى سبيل ذلك اعظم الجهاد لتذليل العقبات

وبعد ذلك بقليل ، اخرج « وات » اختراعين جديدين كان لهما اكبر الأثر فى تقدم الصناعات وهما : جهاز الحركة المتوازية « Parallel motion » وجهاز التحكم فى سرعة الآلة

وفى سنة ١٨٠٠ ، اعتزل « وات » عمله فى المؤسسة ، وحول اسهمه فيها الى ولديه: « جريجورى » . و «جيمس» ثم اقام بمنزل شاده فى « هينفيلد » على مقربة من برمنجهام

وفى سنة ١٨١٩ ، توفى « جيمس وات » مخترع اول آلة بخارية عن ثلاثة وثمانين عاما قضاها فى جهاد متواصل لخدمة العلم والعالم

میشیل فاردای

ميشيل فاراداى

اضطر بعد عامين من التحاقه بالمدرسة الى مغادرتها للبحث عن عمل يكسب
منه ما يقتات به ، ولكن ذلك لم يحل دون ان يصبح من كبار العلماء

موزع الصحف الذى صار أعظم عالم !

كان مولده مبعث حزن وشقاء وياس لاسرته كلها ، ففى ذلك الحين ، سنة ١٧٩١ ، لم تكن حرفة الحدادة التى يكد ابوه طول يومه فى ممارستها تدر عليه ما يكفى الأسرة حاجاتها الضرورية ، حتى انها اضطرت الى مغادرة مسكنها المتواضع لعجزها عن دفع أجره الزهيد ، واستقرت فى « حظيرة » مهجورة بجانب أحد الاسطبلات !

وكثيرا ما تعرض واخوته للموت تأثرا بالبرد القارس الذى ليس لديهم ما يدفعونه به ، بل كثيرا ما تعرضوا للموت جوعا ، لعودة والدهم من عمله خالى الوفاض ، أو برغيف واحد من الخبز اليابس الرخيص ، يقسم على أفراد الأسرة

ولما بلغ السادسة من عمره ، الحقه والده بمدرسة أولية مجانية تعلم تلاميذها مبادىء القراءة والكتابة والحساب ، وقد أظهر الصبى ميلا شديدا الى التعلم ، واستطاع ان يظل متفوقا على أقرانه فى خلال السنتين اللتين قضاهما بتلك المدرسة ، ولكنه اضطر بعدهما الى ترك الدراسة والاكتفاء بتحصيل ذلك القدر الضئيل من المعرفة ، لكى يبحث لنفسه عن عمل يكسب منه ما يقتات به

موزع للصحف

وكان العمل الأول الذى وفق الصبى اليه ان عمل لدى بائع للكتب والصحف فى لندن ، فينهض مع الفجر كل يوم ليحمل على كاهله الواهن حزمة ثقيلة من الصحف والكتب ،

ثم يمضي بها من شارع الى شارع وسط ضباب لا يكاد يتبين طريقه فيه ، لكي يطوف بالمنازل تاركا صحيفة فى أحد المساكن وكتابا فى مسكن آخر .. وهكذا الى أن يتم توزيع كل حمله الثقيل فى نحو ساعتين ، ثم يعود فيجمع ما وزعه صحيفة صحيفة ، وكتابا كتابا ، مع تحصيل الأجر المقرر لقراءتها ، وهو بنس واحد عن كل نسخة ، واخيرا ينتهى به الطواف الى المكتب الذى يعمل فيه ، فيسلم صاحبه صحفه وكتبه والبنسات التى قرئت بها ، ويسلمه هذا اجره الزهيد

مجلد كتب

امضى ميشيل عاما كاملا فى ذلك العمل المرهق الذى لا يطيقه صبى مثله لم يبلغ العاشرة من عمره

واعجب صاحب العمل بهمة موظفه الصغير وصبره الجميل ، وبما تبين له من امانته ووداعته وذكائه ، فاعفاه من ذلك العمل المجهد الذى لا يلائم سنه وطبعه ، واخذ على عاتقه تعليمه صنعة تجليد الكتب ، ليتيح له باحترافها بعد ذلك عملا أقل اجهادا واوفر اجرا

وفى اسابيع معدودة ، الم الصبى الذكى بدقائق حرفته الجديدة ، واخذ فى ممارستها بنشاط وخبرة وحرص على السرعة والاتقان . وكان لزيادة اجره اثر محمود فى تحسن صحته وحالة اسرته ، مما أدخل السرور على قلبه . ولكن سروره كان اشد ، لأن عمله الجديد هيأ له فرصة ثمينة طالما راودت خياله وتراءت له فى أحلامه ، وتلك انه أصبح يجد متسعا من الوقت لكي يقرأ ما يحلو له من الكتب والصحف ، ويرضى بذلك نزعته وميله الفطرى الى الاطلاع

كانت علوم الطبيعة ، وما يتعلق منها بالكهرباء خاصة ، اشد ما استهوى قلب الصبى المحب للمعرفة واجتذب مشاعره وآماله . وبدا ولوعه بهذا النوع من العلم يشتد بعد أن قرأ كتاب « مناقشات العلوم » للأستاذ « مارست

Marcet » وأطلع على بحث شامل عن الكهرباء فى دائرة المعارف البريطانية . وفيما هو راجع الى مسكنه بعد يوم حافل بالعمل الشاق ، لفت نظره أعلان عن مجموعة من المحاضرات فى التاريخ الطبيعى يلقيها الاستاذ « فتمان » . وحز فى نفسه أن الاستماع لكل من هذه المحاضرات حدد له رسم قدره نصف جنيه،وأفضى بهذا الأمر الذىأهمه وأحزنه الىشقيقه « روبرت » الذى يكبره بثلاث سنوات ويعمل حدادا كأبيه ، فرثى هذا لحالته ، ولم يسعه الا بمعاونته على تحقيق هذه الرغبة ، كما سمح له صاحب المحل الذى يعمل فيه بالتغيب عنه فى مواعيدها ، وتطوع أحد زملائه لاعطائه دروسا فى الرسم لكى يستطيع أن يوضح بالرسوم ما يسجله من مذكرات عن تلك المحاضرات !

وبعد قليل ، التقى به فى محل تجليد الكتب العالم المشهور « سير همفرى » الاستاذ بالمعهد الملكى ، فأعجب به الى حد كبير ، وسهل له دخول المعهد للاستماع لمحاضرات أربع ألقاها هناك . وما كاد ينتهى من القائها حتى تلقى من « ميشيل » رسالة رقيقة يشكر له فيها فضل تيسير استماعه لتلك المحاضرات،ويشيد فى تفصيل دقيق بما تضمنته من نظريات وملاحظات، ثم يرجو ان يجد من عطف العالم الكبير ما يساعده على الالتحاق بأى عمل فى المعهد ، ليسهل عليه التزود بما يحتاج اليه من الدروس !

وكان « سير همفرى » من العصاميين الذين شقوا طريقهم فى الحياة بأنفسهم ، فرق قلبه للصبى الفقير الطموح ، وكتب اليه يعده بأنه سيعمل على اجابة طلبه بعد عودته من رحلة اعتزم القيام بها ، وينصح له بمواصلة الدرس والبحث ،

شعاع من الأمل ..

كان الخطاب الذى تلقاه « ميشيل » من سير « همفرى » خير مشجع له على المضى فى الطريق العلمى الذى اختطه

لنفسه ، فبدا يخصص الجانب الأكبر من وقته للبحث والاطلاع وأجراء تجارب أولية فى الكهرباء . على أن الظروف التي تلت ذلك كانت من القسوة بحيث قوضت كل ما شيده

لقد مات أبوه فى تلك الفترة ، فصار عليه أن يخلفه فى اعالة والدته واخوته الصغار ، وانتقل الى العمل فى محل لتجليد الكتب يملكه فرنسى مريض الأعصاب ، اخذ يثقل عليه علاوة على العمل بألوان سخيفة من التعليمات والملاحظات ، ويشتد فى لومه وتعنيفه لأتفه الأسباب

وفى ذات يوم ، فوجىء الصبى بشعاع من الأمل شق ظلمة اليأس المحيطة به ، ولم يكن ذلك الشعاع سوى بطاقة من سير همفرى يدعوه فيها الى موافاته فى صباح اليوم التالى بمكتبه فى المعهد . وامضى ليلته لم يغمض له جفن ، وكانت نتيجة المقابلة فوق كل ما تصور ، فقد بشره العالم الكبير بانه سيعينه « مساعد محضر » فى المعمل التابع للمعهد !

ولم يكن « سير همفرى » فى حاجة الى وقت طويل لكشف ما للمساعد الصغير من مواهب ومزايا ، وهكذا سرعان ما اولاه ثقته ، واخذ يعهد اليه فى اجراء بعض التجارب الدقيقة التى يقوم هو بها فى المعمل

رحلة علمية

وما هى الا شهور معدودة ، حتى اتيحت لميشيل فاراداى فرصة ثمينة لم يكن يحلم بها ، وكان لها اكبر الأثر فى مستقبله وذلك ان سير همفرى اصطحبه فى رحلته التالية الى مختلف انحاء أوربا ، وكانت رحلة طويلة استغرقت زهاء سنة ونصف سنة ، طاف خلالها مع استاذه الكبير بمختلف المعاهد والمعامل والمؤسسات العلمية بالقارة ، وشهد مئات من التجارب واستطاع ان يقوم فى المعمل بتجارب خاصة بأبحاثه المستقلة ، كما اتيح له ان يلقى سلسلة من المحاضرات عن اكتشافاته الخاصة ، استمع لها كثيرون من المثقفين

أول بحوثه العلمية

وفى السنة نفسها نشرت له مجلة « كوارترلى جورنال » العلمية أول أبحاثه عن « الجير الكاوى » ثم ستة أبحاث لخص فيها تجاربه فى الغازات والمعادن . كما ألقى سلسلة أخرى من المحاضرات ، عن اكتشافاته العلمية فى معمل المعهد ولم تكتمل السنة التالية حتى كان قد نشر سبعة وثلاثين بحثا جديدا ، واخرج كتابا عن « خلط الصلب » . وقدم للمعهد بحثا خطيرا عن مركبين جديدين

دخلت حياة « ميشيل فاراداى » فى طور آخر بعد تلك الفترة التى توالت فيها مظاهر نجاحه العلمى ، وكان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره أو نحوها ، وتعرف الى فتاة مهذبة جميلة بادلها الاعجاب والحب ، وكادت تجعل منه شاعرا يدبج قصائد الغزل والتشبيب ، لولا أن كلل ذلك الحب العنيف العميق المتبادل بالزواج العاجل السعيد ، فعاد الزوج الشاب الى تجاربه وابحاثه العلمية

وفى خلال السنين العشرين التى تلت ذلك ، أصبح « ميشيل فارادى » الذى بدأ حياته عاملا فقيرا لدى بائع صحف أعظم عالم فى عصره ، اذ انتخب زميلا فى الجمعية الملكية ، ودعاه معهد لندن الى القاء اثنتى عشرة محاضرة عن اكتشافاته فى الكيمياء ، كما أنه القى ست محاضرات فى الجمعية الملكية عن « الفلسفة الكيميائية » ونشر ستة أبحاث عن «المغناطيسية» ثم بدأ تنظيم محاضرات علمية مبسطة يلقيها بأسلوب جذاب على الأطفال ، وصار الجميع يحرصون على الاستمتاع بالإستماع لهذه المحاضرات ، من اكبر رجال البلاط الملكى ، الى أفقر العمال فى الأحياء الشعبية

الكشف الخالد ..

وأنتج فى أثناء ذلك ١٥٨ بحثا علميا ، وثلاثين مجموعة من التجارب الدقيقة الجديدة فى الكهرباء . ثم بدأ ابحاثه فى

« المغنــاطيسية الكهربائية » الى أن وفق اخيرا الى ذلك الكشف العظيم الخالد الذى اثبت به أن المغناطيسية تنتج الكهرباء ، فكان ذلك ايذانا بمولد عصر الآلات الكهربائية . ثم قدم بعد سنوات كشفين آخرين جليلين : اولهما الخاص بسريان الكهرباء وهو الذى على اساسه بنى نظام التليفون الحديث ، والآخر هو الخاص باثبات اختلاف أنواع الكهرباء

وفى التاسعة والأربعين من عمره ، شعر بتضعضع قواه بعد تلك الجهود الجبارة التى بذلها ، فغادر لندن ومعــه زوجته الى رحلة فى الخارج للراحة والاستجمام . وطالت هذه الرحلة الى خمس سنوات ، وقضى اكثرها فى الريف ، سعيدا بمشاركة اهله البسطاء حياتهم . وما كاد يعود للندن بعد ذلك حتى استأنف جهاده العلمى فى معمله الحبيب ، فبدأ يبحث علاقة الكهرباء بالضوء ، واجرى فى ذلك تجارب عديدة لا تحصى ، كللت بنجاحه الخالد فى اكتشاف طريقته لحفظ شعاع من الضوء ، وعلى هدى هذه الطريقة العظيمة قدر للعالم أن ينتفع بالمصباح الكهربائى المتوهج ، بعد سـنوات على يد توماس اديسون !

جوسیبی غاریبالدی

جوسيبي غاريبالدي

نشا فقيرا فقد كان ابوه صيادا ايطاليا فقيرا يعول اسرة كبيرة ، ولكنه ما ان بلغ اواسط العمر حتى كان الشعب الايطالي باسره يهتف باسمه ويمجده

الصياد الذى حرر ايطاليا !

كانت أمواج البحر الثائرة أول ما تفتحت عليه عيناه من صور الحياة ، فلا عجب ان كان البحر والثــورة هما أبرز الخطوط الرئيسية فى لوحة حياته الخالدة ، التى امتــدت ثلاثة أرباع قرن من الزمان ، منذ مولده فى «نيس» بجنوب فرنسا سنة ١٨٠٧ ، حتى أسلم روحه فيها سنة ١٨٨٢ ، وكانت تلك الامواج الثائرة نفسها آخر ما رأته عيناه !

وما أبعــد الفرق بين حال « جوسيبى غاريبالدى » فى أخريات أيامه ، حيث كان يتطلع الى تلك الامواج من نافذة منزله الجميل ذى الحديقة المزدهرة الغنــاء ، وبين حاله فى مطلع حيــاته وهو يتطلع الى الامواج فى المنطقة نفسها من نافذة الكوخ الوضيع الذى نشأ فيه هو وأخوته مع والدهم الصياد الايطالى الفقير !

هناك فى ذلك الكوخ ، كان الطفل « جوسيبى » كثيرا ما يشعر بالألم الممض من عضات البرد والجوع ورهبة الخوف من المستقبل المظلم المجهول ، ومن الظــلام الموحش الذى يمتد فيما وراء الأفق ، وتلك الصخور والممرات الجبليــة المحيطة بالكوخ !

ميله للمغامرات

وقد طالما حلق خياله حينذاك فى جو القصص العجيبــة والمغــامرات المثيرة التى كان البحارة يروونها عن رحلاتهم البعيدة الخطيرة ، وود لو يتاح له أن يكون من أبطــال تلك

الرحلات ، وأن تروي عن مغامراته أمثال تلك القصص والاساطير . ولكن هذه الأمنية كانت أكبر من أن تحققها له ظروفه التعسة التى لازمت نشأته ، فبقىحتى بلغالثامنة عشرة من عمره ، دون أن يستطيع القيام برحلة خاصة به ، يمضى فيها حيث يشاء ، ويغامر كما يشاء . على أن رحلته الخاصة الاولى لم تكن على شيء من التوفيق ، وتحول بعدها الى قراءة الكتب العلمية والرياضية ، والى الاستزادة من المعرفة باللغات المختلفة التى يعرفها قدماء البحارة ، ثم لم تمض على ذلك ثلاث سنوات حتى خرج منتلك العزلة ليبدأ أولى رحلاتهالبحرية الحقيقية،بوصفه قائدا مساعدا للسفينة « كورتيزى » التى كانت تتاهب للقيام برحلة تجارية الى موانيء البحر الاسود !

كان « جوسيبى غاريبالدى » قد شاهد « روما » فى احدى الرحلات التى صحب والده فيها . وقد راعته آثار المدينة القديمة الخالدة فى العاصمة الايطالية حينذاك ، واستطاع ـ وهو الصبى الصغير الفقير ـ أن يلمس الفارق العظيم بين حياة الايطاليين القوية الغنية فى ذلك الماضى البعيد السعيد ، وبين حياتهم الراهنة الذليلة البائسة،تحت نير الاستعمار والطغيان !

خطر القراصنة

وشاء القدر ان تتعرض السفينة « كورتيزى فى رحلتها لخطر القراصنةالذين كانوا منتشرين فىتلك المناطق البحرية حينذاك وقدأبلى «جوسيبى» وبحارة السفينة أحسنالبلاء فى الدفاع عن أنفسهم وعما تحمله سفينتهم من بضائع ومؤن، ولكن القراصنة عاودوا الهجوم عليها ثلاث مرات فى عرض البحر ، وتمكنوا فى المرة الثالثة من التغلب على المدافعين عنها بعد أن قتلوا وجرحوا كثيرين منهم ، وهكذا نهبوا كل ما كان فيها حتى قلاعها وآلاتها،وتركوا الباقين من بحارتها

على ظهرها ، مجردين من كل سلاح ، بل مجردين من أى طعام أو شراب أو كساء !

وكان الفتى « جوسيبى غاريبالدى » من هؤلاء المساكين الذين تركوا ليهلكهم البرد والظمأ والجـــوع ، أو لتبتلعهم الامواج مع سفينتهم المخربة المنهوبة . ولم يكن هنـــاك أى بصيص من الأمل فى نجاتهم من ذلك المصـــير الرهيب ، لكنهم مع ذلك استمروا يكافحون فى سبيل الحياة ، وكتب لهم أخـــيرا أن يصلوا بسفينتهم المحطمة الى القسطنطينية حيث أســـعفوا بالماء والغـــذاء والكساء ، ورثى لهم بعض زملائهم من بحارة السفن الراسية بالميناء ، فألحقوهم بالعمل معهم فى تلك السفن ، الى أن تحين الفرصـــة لعودتهم الى وطنهم سالمين !

على أن « غاريبالدى » لم يستطع مشاركة زملائه فى ذلك الحل لمشكلتهم ، فقد وقع فريسة لمرض شديد ، اضطره الى التخلف فى القسطنطينيـــة ، حيث آواه بعض المهـــاجرين الايطاليين ، وسهروا على تمريضه وعلاجه ، حتى كتبت له النجاة من ذلك المرض والتحق بالعمل فى سفينة تابعة لملك سردينيا !

ايطاليا الفتاة

أمضى « جوسيبى غاريبالدى » فى عمله البحرى الجديد زهاء خمس سنين ، طاف خلالها بكثير من بقاع العـــالم ، وواجه كثيرا من العواصف والاخطار . ولكن حب الحيـــاة البحرية بقى مسيطرا على قلبه ، وفى الوقت نفسه كان عقله دائم التفكير فى حال وطنه وما آل اليه من فقر وهوان ، وفيما يمكن أن ينقذ هذا الوطن ويحرره من نير الظلم والطغيان !

وعقد فى ذلك الحين « مؤتمر فينـــا » . وأخذ المؤتمرون المنتصرون يمعنون فى تقطيع أوصال الوطن الايطالى المغلوب على أمره ، ويقتسمون مناطقه فيما بينهم ، فكانت « لومباردى »

و « فينيسيا » من نصيب النمســـا ، وكانت « بارما » و « لوكا » من نصيب مارى لويز ، وضمت صقلية بقسميها الى فرديناند الثانى

وعز على « غاريبالدى » أن يقف مكتوف اليدين ازاء هذه المظالم الفادحة التى نزلت بوطنــه الحبيب ، وكان على يقين من أن الموت أو السجن هما نصيب كل ايطالى تحدثه نفسه بالوقوف فى وجوه الطغاة الاقوياء المنتصرين ، أو المجاهرة بمعارضة ذلك التقسيم الذى قرروه فى مؤتمرهم المذكور. لكنه رأى الموت والسجن أحب اليـــه من التســليم بذلك التقسيم المهين. ثم هداه بحثه هذا الامر الى المبادرة بالسفر الى «جنوا» حيث اشترك فى العمل مع محام شاب من أهلها هو «جوسيبى مازينى» كان قد أنشأ جمعية باسم « ايطاليا الفتاة » للعمل على انقاذ البلاد وجعلها جمهورية حرة مستقلة

وفيما كان القائدان الشابان يستعدان لبدء التنفيــذ ، وشى بهما خائن من أعضــاء الجمعية الى السلطات المحتلة ، فتمكنت من احباط تلك المؤامرة ، واعتقلت كل من كانت لهم صلة بها ثم أرسلتهم الى المشنقة .. ولكن «غاريبالدى» تمكن من النجاة بروحه ، وفر متنكرا فى ثياب ريفيـــة عبر ممرات الجبال السويسرية ، ثم تمكن من السفر على احدى السفن الى جنوب أمريكا ، حيث انضم الى مواطنيه المهاجرين فى « ريو دى جانيرو » . ولقى من تقديرهم ومساعدتهم له ما مكنه من شراء سفينة صغيرة أخذ يستغلها فى التجــارة على طول الساحل هناك !

الثورة من أجل الحرية

لم يكن « غاريبالدى » لتشغله غربته عن أهله ومواطنيه الغرباء فى ديارهم، وقد تأصل فى نفسه حب الحرية والثورة فى سبيلها ، حتى لو كانت هـــذه الحرية لشخص آخر أو لوطن غير وطنه. وعلى هذا ماكادت جمهورية «ريو جراندى»

تثور على البرازيل لاسترداد حريتها ، حتى اندفع الى التطوع للاشتراك فى هذه الثورة ، وأعد سفينة حربية صغيرة لهذا الغرض ، أطلق عليها اسم « مازينى » زميله فى الجهاد ، ودرب على العمل معه فيها نخبة من الثوار المجاهدين ٠ وكللت مغامراتهم الاولى بنصر باهر ، اذ تمكنوا من أسر سفينة معادية كبيرة واستولوا على حمولتها الثمينة من النحاس، ولكن مغامرتهم التالية لم يقدر لها النجاح، وانتهت بوقوعه ورجاله جميعا فى الأسر ، بعد اصابته فى المعركة بجرح بليغ !

وطال أسره شهورا عديدة ، قاسى فيها ألوانا من العذاب الشديد ، لكنه ما كاد يظفر بحريته بفضل مساعى احدى السيدات حتى خف الى « ريو جراندى » ليواصل كفاحه المجيد مع أبنائها الثائرين الاحرار !

وهناك فى تلك المدينة التى اتخذها وطنا ثانيا ، وجد الزوجة التى تليق بمجاهد ثائر حر مثله ، وهى مجاهدة جميلة قوية الشخصية من أسرة عريقة ، كما وجدت فيه هى فارس أحلامها المنشود ، وهكذا كان « غاريبالدى » وزوجته « أنيتا » مثلا أعلى للشريكين الوفيين المتعاونين فى الحياة الزوجية ، وفى ميدان الكفاح ضد الطغيان والاستبداد

فى ميدان التحرير

رأى غاريبالدى بعد ذلك أن من حق أسرته الصغيرة عليه أن يتيح لها شيئا من الراحة والهدوء ، فانتقل بها الى مدينة «مونتفيديو» حيث اشترى منزلا بسيطا هناك ، وأخذ يعمل فى التدريس ٠ على أنه لم يقطع صلته باخوانه المجاهدين الاحرار أفراد الفرقة الايطالية التى اشتهرت بمغامراتها الجريئة وأعمالها المجيدة فى كفاح التحرير بجنوب أمريكا

ولم يمض على ذلك قليل حتى كانت هذه الفرقة بقيادته قد برزت الى القتال فى ميدان جديد ، هو ميدان النضال

لتحرير جمهورية أورجواي . وسرت أنبـاء الفرقة مسرى الكهرباء حتى سمع العالم كله بأمرها وأعجب بها، وما كادت الحرب تنتهي بانتصار جمهوريةأورجواي حتى سارعشعبها الى تكريم غاريبالدى وفرقته ، وقرر منحه رتبــة جنرال ، ومنح فرقته قطعة كبيرة من الارض . ولكن غاريبالدى رفض في شمم وأباء أنيأخذ أيأجر أو مكافأة لقاء جهاده وفرقته، وقال لمن ألحوا عليه في قبول تلك الهدية :

ــ ان قبولها يتنافى مع أول مبادئنا وهو الجهاد فيسبيل الحرية ، ولا شيء غير الحرية !

في ذلك الحين ، كان غاريبالدى قد بلغ الحادية والاربعين من عمره ، ومضت احدى عشرة سنة على مغادرته وطنــه الاول ايطاليا هربا من المشنقة !

وترامت الى سمعه أنباء طريفة سارة ، عن اســـتعداد « شارل البرت » ملك سردينيا لمنح شعبه حرية دســتورية تساعده على التحرر من النير النمســوى الثقيل . فآمن الثائر الطريد أن قد حانت ساعة عودته لوطنه البعيـد كي يستأنف العمل لتحريره ، واختار من أفراد فرقته ســتة وخمسين رجلا ، أبحر بهم وبأسرته الى « نيس » على سفينة أعدها لهذا الغرض وأطلق عليها اسم « الاسبيرانزا » .. أى الأمل ! وكان يرفرف فوق ساريتها علم سردينيصنعته زوجته من ملاءة بيضاء وقميص أحمر وحلة قديمة خضراء !

على أن « شارل ألبرت » ملك سردينيا ، خشى على عرشه من غاريبالدى ذى الميولالجمهورية المتطرفة ، فرفض تطوعه للجهاد بفرقته في الكفاح مع شعبه ضد النمسويين

وكانت الصدمة عنيفة قاسية ، ولكن غاريبالدى ورجاله ما لبثوا قليلا حتى وجدوا أمامهمميدانا أرحب وأكرم لابراز مواهبهم ومزاياهم ، ففى ٢٨ من ابريل سنة ١٨٤٩،أعلنت الجمهورية فى روما نفسها ، وهب شعبها يدافع عناستقلاله وحريته ، فسارع غاريبالدى الى هناك ، وانضم وفرقتـه

المشهورة الى القوات الشعبية ، للدفاع ضد الجيوش الجرارة التى أرسلها لويس نابليون من فرنسا وامبراطور النمسا لتأييد البابا بيوس التاسع واخماد ثورة الايطاليين

واستمرت الحرب ثلاثة أشهر ، ثبت فيها غاريبالدى وفرقته فى النضال مع شعب روما ثبات الجبال ، وانتقل القتال من شارع الى شارع ، ومن منزل الى منزل ، ولكن المجاهدين الاحرار كانوا أقل عددا وعدة ، وهكذا لم تستطع قوات الجمهورية الشعبية أن تواصل الصمود أمام الجيوش الفرنسية والنمسوية ، فاستسلمت فى النهاية ، ودخل البابا روما مرة أخرى ليستأنف حكم شعبها بقوة الحديد والنار • ولكن غاريبالدى أبى وحده أن يذعن لهذه النهاية الذليلة ، فقرر الانتقال بفرقته وأسرته الى البندقية « فينيسيا » ليستأنف كفاحه فى سبيل تحرير الشعب

وما أقبلت سنة ١٨٥٩ حتى حانت الفرصة التى طالما تمناها « غاريبالدى » •• اذ أعلن نابليون الثالث الحرب على النمسا ، وهب الشعب الايطالى بقيادة السياسى العظيم « كافور » لتحرير نفسه من النير النمسوى الثقيل • وسرعان ما دعاه « كافور » وعينه قائدا للقوات الايطالية الشعبية فى جبال الالب

وحمي وطيس المعارك بين الايطاليين والنمسويين ، ولمع اسم « غاريبالدى » فى جميع الميادين بفضل ما أبداه من ضروب الجرأة والبسالة والخبرة بفنون القتال

ولم تجد النمسا مناصا من الجلاء عن « لومباردى » التى قاد غاريبالدى صفوف المقاتلين من أبنائها الاحرار ، وعلى أثر ذلك سارع على رأس فرقته الى صقلية لتحريرها من حكم الطاغية فرنسيس بن فرديناند الثانى ، وسارع الصقليون جميعا الى الانضواء تحت راية محررهم المحبوب، وكلل جهاده بالفوز المبين • وأصبح الشعب الايطالى كله

يهتف باسمه ويمجده مشيدا ببطولته . ولو أنه شاء في ذلك الحين أن يكون دكتاتورا لايطاليا لبايعه الشعب على ذلك بالاجماع ، ولكنه آثر أن يعود الى حياته البسيطة الهادئة في جزيرة « كابريرا » بعد أن حرر صقلية وأسلمها الى رعاية « فيكتور عمانوئيل » ملك ايطاليا في ذلك الحين !

انتصار الحرية

بقي « غاريبالدى » فترة غير قصيرة يترقب أمر الملك بالزحف على روما واعلانها عاصمة للبلاد ، ونفد صبره أخيرا ، فتولى هو نفسه أمر ذلك الزحف ، على رأس ثلاثة آلاف من جنود فرقته المشهورة . وشد ما كانت غضبة الشعب حين تصدى الملك لوقف ذلك الزحف خشية اغضاب فرنسا ، وأرسل قواته الملكية فأحاطت بالفرقة الزاحفة وأسرت قائدها ، بل قائد جهاد التحرير ، ولم يسع الملك ازاء ثورة الشعب الا أن يطلق سراح غاريبالدى من السجن الذى وضع فيه ، فعاد الى حياته بالجزيرة ، ثم زار انجلترا في سنة ١٨٦٤ فقوبل فيها بأبلغ الحفاوة والترحيب . وما كاد يعود من رحلته حتى عاودته فكرة الزحف على روما، وما لبث أن حاول تنفيذها للمرة الثانية في سنة ١٨٦٧ ، ولكن الحظ خانه في هذه المرة أيضا ، وانتهى الامر بأسره والزج به في السجن من جديد !

وأخيرا ، قدر لأحلام غاريبالدى أن تتحقق فجأة، فحاقت الهزيمة بجيوش نابليون الثالث في « سيدان » وانسحبت الفرقة الفرنسية من روما ، فدخلها الملك فيكتور عمانوئيل دون أية مقاومة ، وأعلنها عاصمة لايطاليا !

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان :	شركة فرج الله للمطبوعات ــ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت (تليفون ٧٨ ــ ١٧) صندوق بريد١٢١٠ ــ أو باحدى وكالاتها فى الجهات الأخرى . (الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهى تتولى تسليمها لحضرات المشتركين)
العراق :	السيد محمود حلمى ــ صاحب المكتبة العصرية ــ ببغداد
اللاذقية :	السيد نخلة سكاف
مكة المكرمة :	السيد هاشم بن على نحاس ــ ص.ب٩٧
البحرين والخليج الفارسى :	السيد مؤيد احمد المؤيد ــ مكتبة المؤيد ــ البحرين
برقة :	السيد محمد على بو قعيقيص ــ بنغازى ــ ص . ب ١٠٤
البرازيل :	Snr. Jorge Suleiman Yazigi, Rua Varnhagem 30, Caixa Postal 3766, Sao Paulo, Brazil.
ساحل الذهب :	The Queensway Stores, P.O. Box 400. Accra, Gold Coast, B.W.A.
نيجريا :	Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.
انجلترا :	مكتب توزيع المطبوعات العربية Arabic Publications Distribution Bureau 15 Queensthorpe Road, London, S E 26.

هذا الكتاب

سئل أديب كبير : « أى انواع القراءة احب اليك ؟ » . فأجاب : « قراءة تراجم العظماء » وقد صدق هذا الأديب ، فان لكل عظيم حياة تمتاز بالتجارب النافعة ، والمثل العليا ، ويجد فيها القارىء أصدق العبر ، وأبلغ الدروس

وقد سبق لكتاب الهلال ان اصدر كتبا عن طائفة من العظماء ، ولكنه فى هذه المرة يقدم بمعاونة مؤسسة فرانكلين «القاهرة — نيويورك» كتابا من نوع جديد يختص بالعصاميين العظماء

وقد احتوى هذا الكتاب على عشرين حياة عظيمة : عشرة من الشرق ، وعشرة من الغرب لكل من أصحابها لون خاص من العصامية الأصيلة التي حطمت العقبات . وقد كتب الجزء الاول نخبة من نوابغ الكتاب ، وترجم الجزء الثاني عن « كتاب أولاد فقراء صاروا مشاهير » للسيدة سارة بولتون ، وهى كاتبة أميركية نابغة اختصت بالكتابة عن المشاهير . وأشرف على وضع هذا الكتاب الأديب الكبير والمربى الجليل الأستاذ محمد فريد ابو حديد ، فكان جديرا بموضوعه ، ممتازا باخراجه